

شريف حتاتة

رقصة أخيرة قبل الموت

روايـــة

رقصة أخيرة قبل الموت

شريف حتاتة

رقم الإيداع : /٢٠١٣
الترقيم الدولى :

الطبعة الأولى ٢٠١٢



قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ - المقطم - القاهرة
ت، ف : ٢٥٠٧٥٩١٧-٠٢-٠٠٢
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران
الغلاف: عبد الله رجب

الطبعة الأولى ٢٠١٣

روايـــة

رقصة أخيرة قبل الموت

شريف حتاتة

الطبعة الأولى ٢٠١٣

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

. ط١.
القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ٢٠١٣.
ص ؛ ١٧ × ٢٤سم؛
تدمك :

رقم الإيداع : - ٢٠١٣

المحتويات

الفصل الأول

يوم عيد ميلادي صباحًا

استيقظتُ على أصوات مطارق تدق على خشب صلب عواميد الأسمنت المسلح. التفتُّ إلى الناحية التي كانت تجيء منها الأصوات، فاصطدمتْ عيناي بنافذة عريضة تسرب منها ضوء النهار مخترقًا فتحات الشيش الحصير. تملكتني الدهشة، ثم أدركتُ أين أنا. قمت إلى النافذة وشددتُ بحرص على الحبل المزدوج الهابط من أعلاها ليرتفع الشيش، تأملتُ الشارع العريض تتوسطه مساحة مستطيلة من الأرض مزروعة بالأشجار والحشيش جف بعضه. خلف الشارع مسطحات من الرمل واسعة، صعدت فيها هياكل البيوت التي كانت تُقام في مستعمرة سكنية ناشئة. على الأسطح لمحت أجسامًا تروح وتجيء حاملة أشياء على أكتافها.

أنزلت الشيش وعدتُ لأرقدَ على السرير. مرّت شاحنة، وتبعتها ثانية فأحسست به يهتز على أرض الغرفة. كانت لا تزال نائمة تتردد أنفاسها ببطء، فاستغرقتُ في تأملٍ ملامحَ وجهِها، في الأنف المستقيم، والجبهةَ العريضة، والشعرَ الأسود، في الغمازتين تظهران من على جانبي الفم

الممتلىء عندما تبتسم في نومها. همست ببضع كلمات فاقتربت منها، لكنها توقفتْ عما كانت تنطق به، وألقتْ بالغطاء جانبًا لتكشف عن ساقين طويلتين. انقلبتْ على جانبها، وظلتْ لبعض الوقت ساكنةً، ثم رفعت ساقيها فانزلق ثديها من فتحة القميص. شدت عليه بحركة ستر غريزية فاختفى مثل طفل أطل من الباب على الكبار الجالسين في غرفة، ثم ولّى هاربًا.

يوم أن تعرتْ أمامي لأول مرة اكتشفتُ أن ثديها صغير وأنني أستطيع أن أحتويه في كفّ يدي، فقلت لها: "ثديك جميل." ضحكت في سرور وقالت:

"قبل أن نلتقي كنت أضيق بصدري لأنه صغير، وأبتاع له المشدات المبطنة."

قلت لها:

"إنه كالحمامة البيضاء الوليدة، عندما رأيته خطر في بالي أنني على العكس منه قبيح، وعجوز."

قالت:

"أنا لا أراك هكذا، وإلا لما وهبتُ نفسي لك."

انقلبتْ على جانبها مرة آخرى ووضعت ذراعها تحت رأسها. في نومها لا تظل ساكنة، تتحرك دائمًا كأن ما كانت مستغرقة فيه أثناء النهار يُطاردها في الليل. إذا سقط الغطاء من على جسمي وأنا نائم أشعر بها تستيقظ، وتميل عليّ بحرص لتُعيد الغطاء، فأتساءل تُرى كيف يُمكنها أن تشعر بما حدث لي وهى نائمة؟.

ربت على رأسها، وقمتُ إلى الحمام. جلستُ على المرحاض، وسرحتُ فيما كتبته في اليوم السابق. قمت مُسندًا يدي على الجدار. أحسست

بجسمي ثقيلاً، بساقي تميلان من تحتي. ضغطت على القرص المعدني للسيفون، ثم غسلت يدي في الحوض، وعدت إلى غرفة المعيشة التي ننام فيها صنعناها بإزالة الجدار بين غرفتين. يُوجد فيها دولاب كبير نتقاسمه فيما بيننا، ومكتبة تحتل جدارين، ومائدة نتناول عليها وجباتنا، ومكتب لي، ومنضدة خاصة للكمبيوتر وملحقاته، ومقعد هزاز تجلس عليه عروسة كبيرة تُمسك بها أحيانًا لتُهدهدها بين ذراعيها وهى سارحة.

جلست على مكتبي تناثرت فوقه الأوراق، واستغرقت في إجراء التعديلات التي انشغل عقلي بها، وفجأة جاءني صوتها وهى تنادي عليَّ، كأنها تذكرت شيئًا مهمًا وهى نائمة. سمعتها وهى تقول:

"اليومُ عيد ميلادك، كل سنة وأنت طيب"

قفزتْ من على السرير، واقتربت مني. لفَّت ذراعيها حولي وقالت:

"لن نقضيه وأنت جالس على مكتبك"

قلت:

"سني اليوم ستة وثمانين سنة. أليس الأفضل أن نتجاهل هذه المناسبة"؟.

ألقت إليَّ بنظرة فيها عتاب. قالت:

"عيد ميلادك مهم، ويجب أن نحتفل به. أنت تحضني دائمًا على الفرحة كلما كانت هناك مناسبة لذلك".

قلت:

"هناك سبب غير سني لإعراضي عن الاحتفال. هل غاب عنكِ؟"

"لا، أنا لم أنْسَه، لكن هل ستظل تتذكر ما حدث لأمك كلما جاء عيد ميلادك؟"

"مازلت أشعر أنني السبب فيما جرى لها. ساعة ولادتها لي طلبت من الممرضة في المستشفى أن تحملني لحظة بين ذراعيها حتى ترى وجهي، وتطمئن على جسمي، ثم بعدها بقليل سقطت في غيبوبة ولم تعد منها. أنجبت أربعًا من الإناث فأصرّت أن تُنجب مرة خامسة لعل يكون المولود هذه المرة ذكرًا، رغم تحذير الأطباء لها بسبب ما أصابها في الكبد. أصرت أن تؤدي ما لزوجها حتى ترحل مطمئنة. هكذا حكى لي أبي في ليلة من ليالي الصيف ونحن جالسين في حوش المنزل. ظلت أمي طوال حياتي كالفجوة السوداء أعجز عن ملئها بأي شيء سوى بإحساس الفقدان والحزن. أحيانًا كنت ألتقط عنها كلمة من هنا، أو كلمة من هناك، أو جملة عابرة مبتورة أثناء حديث يدور بين شقيقاتي. لم يكن أحد يرد على أسئلتي عنها. سعوا جميعاً إلى غلق هذا الموضوع. أما أبي فاكتفى بقول ما قاله لي في تلك الليلة إلى أن رحل بدوره عن الدنيا. أمي ماتت لكي تنجب الذكر الذي هو أنا."

نظرت إليَّ بذلك الصفاء في عينيها الذي يجعلني أغرق فيهما. قالت:

"مع ذلك سنحتفل. الموت جزء من الحياة لولاه لما كانت، فقل لي كيف تُريد أن نحتفل؟"

قلت:

"هل يُوجد احتفال أجمل من أن نمضيه في ممارسة الحب."

أضاء شيء كالوهج البعيد في عينيها. ضحكت ثم قالت:

"فلنؤجل هذا حتى الليل. الجو اليوم جميل. ألا تُريد أن نقضيه في مكان فيه خضرة وأشجار، أن نخرج من حصار الجدران؟"

اقتربتْ من النافذة، وأطلّتْ منها كأنها تبحث عن اللون الأخضر وسط الرمال الصفراء، وهياكل الطوب والأسمنت، جاءتنا أصداء

موسيقى عسكرية من تليفزيون الجيران، فالتفتت إليّ قائلة: "اليوم عيد العبور". اتجهت إلى المكتبة وأخرجت منه إسطوانة مدمجة وضعتها في جهاز التسجيل قبل أن تعود إلى النافذة وتغلقها، ثم خرجت من الباب المنزلق الذي يفصل غرفة المعيشة عن بقية الشقة، وأغلقته وراءها، فاختفى صوت الأبواق، ودق الطبول الآتي من عند الجيران.

نقلتُ العروسة إلى ركن السرير، مسندًا ظهرها إلى الجدار حتى أتأكد أنها مستريحة، ثم جلست مكانها على المقعد الهزاز، وتركت نفسي لأنغام العود، والبزق، والناي، لإيقاع الطبلة البطيء الخافت لتحملني إلى السهول، والجبال، إلى التأملات الصوفية للرعاة في تركيا.

انتهت الإسطوانة، فتنبهت أننا سنغادر المنزل بعد قليل، وأنه يجب أن أحلق ذقني. صارت شعيراتها الشائبة طويلة. وقفت أمام المرآة قبل أن أُغطي وجهي برغوة صابون الحلاقة. فحصت شبكة التجاعيد زحفت عليه وئيدة. حول عيناي دائرتان في لون الرماد تُحاصران ما تبقى فيهما من بريق. اخترقت الموسيقى العسكرية الجدران من جديد، وصارت تصدح عالية لتُعلن عن انتصار نصفه كذب، ونصفه فقط حقيقة. عمري اليوم ست وثمانين سنة، تُرى كم تبقى لي من السنين؟ أُدرك أن صورًا لأيامها بعد رحيلي تمر بخيالها. في يوم من الأيام قلت لها: "النهاية تقترب" فلمحت في عينيها نظرة خاطفة لها معناها كادت أن تختفي قبل أن تظهر واضحة. شعرت بالندم، بأنني غبي، ولم يُبارحني هذا الشعور أياماً متتالية. سعدت بالحياة معها سعادة نادرة، فكيف يأتي لي أن أقول هذا؟ في جسمي ما زال القلب نابضاً، فلأعش ما تبقى لي من عمر من أجلها.

فُتح الباب المنزلق، وأطل عليَّ وجهها. سألتني:

"ماذا تنتظر؟ ألن تحلق ذقنك قبل أن نخرج؟"

خلعتُ المنامة وتوجهت إلى الحمام. تبعتني بعد قليل. خلعتْ قميص النوم، والسروال الداخلي، فأصبحت عارية، ثم وقفت تحت رذاذ المياه الهابط من الدش. سألتني:

"هل يُمكنك أن تدعك لي ظهري قبل أن تنشغل بحلاقة ذقنك؟"

تركت أدوات الحلاقة جانباً، واتجهت حيث كانت تقف. أمسكت بالليفة، بللتها تحت المياه الساخنة، وأشبعتها بالصابون، ثم صرت أمر على ظهرها النحيل يُشبه ظهر المراهقة. قالت بعد قليل:

"هل يمكنك بعد أن تنتهي من دعك ظهري أن تحممني؟"

هبطت بالليفة إلى الدوران السخي أسفل خصرها، وصعدت بها من جديد. دارت بجسمها لتُواجهني، فمررت بها على صدرها، على بطنها، وعلى العانة لمع في سوادها إحمرار خفيف. لمحت في عينيها نظرة حنان كأنني أمها تُحممها بعد أن شُفيت من المرض، نظرة اختلط فيها الاستسلام بالمتعة. تأملت جسمها. تأملت شعر رأسها المقصوص فوق عنقها الطويل وعينيها فيهما دفء كسول. قلت لنفسي إنها تُشبه نفرتيتي هبطت إليها جيناتها مع مياه النيل.

لفت نفسها في بشكير، وتركتني أقوم بحلاقة ذقني. انتهيت من الحلاقة فجففت أدواتها، وأعدتها إلى مكانها في خزينة معلقة على الجدار، ثم عدت إلى غرفة المعيشة. أخرجت من الدولاب غيارات داخلية، وجورباً، وبنطالاً، وحزاماً من الجلد، وقميصاً أبيض، ثم شرعت في ارتداء ملابسي. وأنا أُقدم على ارتداء القميص قالت لي:

"هذا القميص يُعجبني. أُريد أن أرتديه. هل لونه الأبيض سيتناسب مع بنطالي الكحلي؟"

قلت: "نعم".

أسرعت بارتداء ملابسها ثم وقفت أمامي وسألتني:

"هل الأبيض متناغم مع البنطال الكحلي فعلاً؟"

قلت:

"الألوان الغامقة والألوان الفاتحة تصنع تناقضاً منسجماً فكل منهما يُبرز لون الآخر."

نظرت إليّ في شك ثم قالت:

"يعني القميص الأبيض يتناسب مع لون البنطال الكحلي؟"

قلت:

"جدًّا"



الفصل الثاني

يوم عيد ميلادي بعد الظهر

تناولنا وجبة إفطار سريعة. لم نفتح التليفزيون في هذا اليوم. تركناه مصمتًا لا يصدر عنه صوت. لم نرد أن نستمع إلى أخبار "الدويقة"، أن نرى وجوه الناس الذين دُفن أحد من ذويهم تحت كُتل من الصخر، أن نعرف المزيد عن آثار الأزمة التي سببها أصحاب رأس المال في سعيهم المسعور لمضاعفة أرباحهم، أن نرى عيون الجوع في وجه طفلٍ أسود راقد على حِجر أمه، أو جثث لمهاجرين وهى راقدة على شواطيء البحر، أو قتلى وجرحى السيارات المفخخة، وقذائف الحرب. لم نُرد أن نشاهد صور الحكام وخبرائهم يهبطون من سياراتهم أمام مبنى الناتو في مدينة بروكسيل، أو وهم يضحكون حول مأدبة للعشاء، أو مبارك وهو يُلوح بيده للمجتمعين في مجلس الشعب. فاض بنا الكيل من الكلام عن مصلحة مصر. كنا نبحث في هذا اليوم عن لحظة سعادة نُخفف بها أثقال العيش في هذا العهد.

قلت لها ونحن نخرج من حوش العمارة:

"أصبحنا في موسم تصفيات الصيف، فلماذا لا نقضي بعض الوقت في البحث عن ملابس ستحتاجين إليها. قد نجدها تُباع بأسعار جرى تخفيضها."

ألقت إليَّ بنظرة فيها رفض لما اقترحته عليها. قالت:

"اليوم عيد ميلادك، والمفروض أن نبحث عن هدية لك، وليس عن ملابس لأرتديها أنا."

قلت:

"لا أشعر أن هناك ما أحتاج إليه، ربما فقط إسطوانات موسيقى. بحثت عما أريده منها، ولم أجدها تُباع في مصر. أعشق الموسيقى الصوفية، والأسبانية، واليونانية، والتركية. هناك شيء مشترك بينها رغم الاختلاف الذي يُميز كلا منها. إنك ستسافرين في يوم قريب إلى بيروت، أو دمشق، وهناك يُوجد تجار متخصصون في قرصنة الموسيقى بأنواعها."

قالت:

"أنت كالعادة لا تُريد لنفسك شيئاً."

قلت:

"ما أحتاج إليه يقل مع السن. لا تنشغلي من أجلي. عندما أُريد شيئاً سأبحث عن وسيلة للحصول عليه. يُوجد تقليد ظريف للشعب الصيني. في أعياد الميلاد المحتفى به هو الذي يُقدم الهدايا للقريبين منه، فالسعادة تبعث على الكرم، على العطاء."

قالت:

"هذا التقليد لا شك من تأليفك. تُريد أن تُقنعني بما اقترحته عليَّ."

"أبداً والله. قرأت عنه لكني لا أذكر أين. لنذهب الآن إلى أحد المولات حتى لا نضطر إلى البحث طويلاً. أقترح مول أركاديا فهو على كورنيش النيل."

قالت ضاحكة:

"أنت تُؤلف الحكايات وأنا أقتنع بها. تبدو عليك الجدية وأنت تحكيها فأصدق ما تقوله."

عندما وصلنا إلى المول قرب الساعة الثالثة بعد الظهر مررنا من بوابة الأمن وصعدنا على السلم المتحرك إلى الدور الثاني. كانت هذه هى المرة الثانية التي أذهب فيها إلى هذا المول، فبدا لي مهجورًا. كان البائعون والبائعات جالسين في المحلات الخالية من المشترين وقد ظهرت عليهم علامات الملل. أمسك أحد الفراشين بممسحة مطاطية صغيرة صار يمر بها بحركة بطيئة على الواجهة الزجاجية لأحد المحلات. في كافتيريا عند الدور الأرضي جلس رجلان على مائدة. كان أحدهما يقرأ في صحيفة، بينما مدّ الآخر ساقيه وراح في سُبات. عند طرف الحاجز في الدور الثاني وقفت مجموعة من الشباب وصاروا يُطلون من أعلاه في صمت كأنهم ينتظرون أن يحدث شيء.

دخلنا في محل لبيع الملابس. تجولنا فيه قليلاً، وبعد أن قررنا سوياً ما يُمكن أن يصلح لها طلبنا من إحدى البائعات أن تُخرجها من مكانها، وأن تضعها في غرفة من غرف ارتداء الملابس حتى تختار منها. بعد ما يقرب من نصف الساعة خرجنا منه بكيسين فيهما ثلاثة قمصان، وأربعة بلوزات، وبنطالاً من قماش الجينز، وآخر من الجبردين، ثم عرجنا على محل آخر لتبتاع عددًا من الملابس الداخلية من نوع البودي وضعناها في أحد الكيسين رفضت أن أحمل عنها إحدهما. قالت:

"أُريد أن أحمل كيساً في كل يد من يديّ حتى أحافظ على توازني أثناء السير."

سألتها:

"هل نبحث عن سيارة للأجرة تحملنا إلى ميدان عبد المنعم رياض لنستقل الميكروباص الذي سيحملنا إلى البيت؟"

قالت:

"لا... أريد أن نمشي قليلاً إلى جوار النيل."

هبطنا على سلالم المدخل إلى الشارع. تسللت هى بين السيارات المركونة إلى جوار الرصيف، وأخذت تلوح بأحد الكيسين إلى السيارات المسرعة فوق الطريق حتى أتمكن من اجتيازه، لكن لم يُوقف أحد سيارته، أو يُبطيء من اندفاعها، فاقتحمت طابور السيارات رافعاً يدي في حركة تعلمتها من بوليس المرور، متجاهلاً النظرات القلقة التي كانت تُلقيها إليَّ، والأبواق المتوترة الغاضبة التي أطلقها أصحاب السيارات. توقفت على الرصيف الذي يفصل بين حارتي الطريق قبل أن أستأنف سيري إلى شاطيء النيل، وبعد أن وصلت إليه استدرت لأتتبعها وهى تخوض في زحام المرور إلى أن لحقت بي. قالت:

"يا سلام على نظرة الانتصار التي تُطل من عينيك. طبعاً مبسوط من نفسك جداً، لكن أرجوك لا تفعل ما فعلته مرة آخرى. أوقفت قلبي."

قلت:

"هذه بلد إن انتظر فيه المرء حتى يُفسح له أحد الطريق سيُضيع عمره في الإنتظار. كيف تُريدين لرجل في مثل سني أن يتحرك في هذه المدينة؟ لا تنزعجي من تصرفاتي هذه. أنا حريص على حياتي، وتعودت أن أُدقق في حساباتي. لكن قولي لي، هل كان منظري مضحكاً وأنا أقفز لأتفادى هجوم السيارات؟"

ضحكت:

"لا أبداً. كان شكلك محترم رغم قفزاتك، لكن أوعدني ألا تفعلها مرة ثانية."

أمسكتْ بي وسِرنا. بعد قليل توقفتُ، وأفلت عنها ذراعي، فسألتني:

"مالـك؟ هـل يتملكـك شـعور بالخجـل ونحـن نسـير كـأن بيننـا علاقـة حميمة؟"

قلت:

"أبداً... أنا لا أسعى لإخفاء هذه العلاقة. بل أنا فخور بها وأُعلنها في كل مكان. على العكس أشعر أنك أنت التي تسعين لإخفائها."

"طبيعي... ألا تعرف كيف تكون النظرة الشائعة إلى امرأة مثلي مازالـت شابة ثم ترتبط برجل يكبرها بسنوات. سيقولون إنني أطمع في مالك."

"مالي؟ لكن أنا أصبحت مفلساً."

"صحيح.. لكن ألم تقرأ ما كتبته، وأذاعته عنا نوران. إنهـا تُعبر عـن رأي أغلب الناس."

قلت:

"سيتغير هذا حتماً. سيعرفون أي نوع من الناس نحـن. الحقيقـة يُمكـن أن تختفي لبعض الوقت فليقولـوا مـا يُريدونـه. علاقتنـا جميلـة، وأنـت أجمل ما فيها لأنك ارتبطت بعلاقـة حـب مـع رجـل يقـترب مـن نهايـة حياته.

قالت:

"لكنهم ينظرون إليّ كما ينظرون إلى المـومس، فمـن وجهـة نظـرهم مـا الذي يجعل امرأة مثلي ترتبط برجل وصـلت سـنه إلى مـا وصـلت أنـت إليه؟"

قلت:

"أنت وأنا سنغير كل هذا. خلعت ذراعي لأننـي أجـد صـعوبة في المشي عندما تكون حركتي مقيدة. لكن الآن أُريد أن تتأبطي ذراعـي، أن نسـير هكذا في عيد ميلادي. ما رأيك هل نُواصل السير؟"

قالت:

"نعم."

كانت الشمس ساطعة لكن نسمة العصاري صارت تتحرك فوق مياه النيل. شعرت بخطواتي فوق الرصيف ثابتة، بجسمي وقد أصبحت فيه خفة نادرة. سرت رافعًا قامتي المحنية. منذ أن عرفتها أبذل جهودًا لأخفي مظاهر الكبر. أرفع قامتي كلما تنبهت إلى الانحناء الذي أصابني. تركت شعري ينمو ليخفي الصلعة التي اتسعت في رأسي وأمشطه بحيث يُخفي أكبر منها مساحة ممكنة. في أحد الأيام كنت سائرًا في الشارع، فلمحت إعلانًا عن عقار الفياجرا في واجهة صيدلية الصحابة القريبة من بيتنا. خطر في بالي أن أبتاع قرصاً، وأن أختبر تأثيره. توقفت أمام الإعلان وأخذت أقلب في الأمر. بعد تفكير قلت لنفسي ربما الأفضل أن أتناول نصف قرص بدلاً من قرص بأكمله، فالقرص الكامل قد لا أحتمل تأثيره. حذرني الطبيب من أي شيء يُقلل من الأوكسجين الذي يصل إلى المخ أو القلب. ستكون صدمة فظيعة لها، وفضيحة إذا توقف قلبي أثناء ممارسة الجنس. مرت بذهني صور مرعبة. قبل أن أتأهب للابتعاد تنبهت إلى شاب ربما لاحظ أن وقفتي أمام الإعلان طالت. كان يرتدي تي شيرت فستقي اللون طُبعت عليه كلمات بالإنجليزية تقول: "لا تتردد.. افعلها"، وكان يتأملني وعلى وجهه ابتسامة، فألقيت إليه بنظرة تنم عن الضيق، لكنه ظل يتأملني ويبتسم، فابتعدت عن الإعلان وواصلت السير.

التفتت إليّ وسألتني:

"فيما تُفكر؟"

قلت:

"أبداً... في لا شيء بالتحديد.

الفصل الثالث

عيد ميلادي في المساء

كانت الشمس على وشك الغروب عندما صعدنا على سلالم البيت. أخذت منها أحد الكيسين حتى تُخرج مفتاح الباب من حقيبتها. فتحته واجتزنا الصالة إلى غرفة المعيشة. وضعنا الكيسين على السرير، واتجهت إلى النافذة. فتحتها وأطلت على الجهنمية التي زرعناها في الحوض قرب واجهة العمارة. قالت:

"تركوا الأرض تجف. المسئولون عن الحي لا يهتمون إلا بالحديقة المزروعة حول جهاز المدينة، بينما المسافة التي تفصلها عن بيوتنا لا تزيد عن الخمسين متراً."

رفعت رأسها وتنفست بعمق كأنها تمتص المنظر الممتد أمام عينيها، وقالت:

"أترى هذا الغروب؟ أترى اللون القرمزي الذي يتلامس مع السحب؟ إنه منظر رائع."

قلت:

"هذه السحب الداكنة اللون سببها التلوث الذي يزداد كل يوم."

التفتت إليّ وتأملتني ثم قالت:

"انس موضوع التلوث. السماء تحتفل بعيد ميلادك، والدماء جرت في خديك من نزهتنا إلى جوار النيل." أحاطتني بذراعيها وقبلتني. "أشكرك على الجهد الذي بذلته معي في اختيار الملابس. إنها جميلة فعلاً، وفيها ذوق. كنت أكره شراء الملابس، لكنك جعلت منها متعة. سأتناول دُشاً الآن، وبعد ذلك سأُعد للاحتفال بك."

قلت:

"يُمكنني أن أقوم بشيء لمساعدتك."

قالت:

"لا.. استرح أنت. يكفيك الجهد الذي بذلته في الشراء. لم أحتفل بك حتى الآن."

جلستُ إلى جوار النافذة في انتظار خروجها من الحمام. جاء لي صوت دق على السقف الذي يفصلنا عن الجار الساكن أعلانا، فهو نجار لا يكف عن الدق عندما يعود آخر النهار. أما بناته فالليل هو الوقت الذي تفضلنه للدق في الهون، كأن أكلة اللحم المفضلة لديهن هي الكفتة. كلما سمعت صوت الهون جرى ريقي، فأنا أعشق أكل الكفتة وعلى الأخص تلك التي تُصنع مع الفريك. ربما ذكرى أخرى من ذكريات الأيام التي عشت أثناءها مع جدتي في دوار كفر الحداد. عندما تخرج أمنية من الحمام سأطلب منها أن تُعد لنا هذه الوجبة في أحد الأيام. لكن لا، لن أطلب منها ذلك، لا داعي لأن أُزيد عليها الأعباء. صناعة الكفتة تحتاج إلى جهد. غريبة تلك المشاعر المتدفقة التي تُظهرها

نحوي. عندما قلت لها: "لابد أنه يُوجد مَنْ يصلح لك كشريك أكثر مني، فبيني وبينك خمسون سنة من العمر". تأملتني بتلك النظرة الصافية من عينيها وقالت: "عندما ألتقي به سأخبرك."

مددتُ ساقيَّ لأُريحهما من تعب المشوار، ونظرت إلى الشارع. كان ساكناً، ليس فيه سيارة تجتازه، أو أحد من المارة، فقط حركة الأشجار تتمايل غصونها ببطء، وترفرف أوراقها بين الحين والآخر، فتبدو كالأسماك الذهبية السابحة في الضوء الأصفر الهابط من مصابيح الشارع. تُرى هذا النسيم من أين جاء، وعلى مَنْ مر في طريقه؟ الحياة مثل الرياح يصعب التنبؤ باتجاهها، مثل المناخ لا نعرف ما يُمكن أن يحدث فيه من تغييرات. لكني راضٍ. ربما كأس من النبيذ سيكون مناسباً اليوم.

استنشقتُ رائحةً كالياسمين فالتفت. كانت واقفة أمام المرآة تُمشط شعرها. سألتني:

"ما رأيك في كأس من النبيذ؟"

قلت:

"إنك تقرأين أفكاري، فهذا ما خطر في بالي منذ لحظة."

ذهبتْ إلى المطبخ وعادتْ تحمل صينية وضعت عليها أطباقاً صغيرة فيها زيتون أخضر، وشرائح من الطماطم، والخيار، وجبناً أبيض، وجبناً رومياً، وزيتوناً أسودًا، وزعتراً أُضيف إليه زيت الزيتون، وسلة مستديرة من القش صفّت فيها قطعًامن الخبز الأسمر، وكأسين مستطيلتين. تركت الصينية على منضدة صغيرة فحصتها بنظرة سريعة قبل أن تعود إلى المطبخ خرجت منه وفي يديها زجاجة نبيذ وفتاحة، وعلبة فيها حلوى. جلست إلى جواري وسألتني: "ما اسم هذه الحلوى؟"

حاولت أن أتذكر اسمها دون جدوى. قلت:

"ابتعتها في مدينة توليدو. أما اسمها فهي .....". صمت، ثم قلت: "لم أعد أتذكر اسمها، سيحضرني بعد قليل. أصبحت أنسى الأسماء، لكني أعرف أنها مصنوعة من عجين اللوز."

قالت:

"تذوقت منها قطعة. لذيذة جداً." ضحكت: "لم أستطع الانتظار. أشتاق إلى القيام بزيارة لأسبانيا. أُريد أن أتعلم رقصة الفلامنكو."

قلت:

"يُمكنك أن تتعلميها هنا بدلاً من السفر خصيصاً لهذا." ضحكت

"لا، أُريد أن أتعلمها حسب أصولها، ثم أنت قلت لي إن أسبانيا بلد جميل، إن شعبها قريب منا، إنك أحببت رقصاتها، وأغانيها. أنا قرأت ابن حزم، وابن رشد، أقصد أجزاء مما كتباه. هل قرأت المقال الذي كتبته عن فيلم المصير في مجلة الشاشة."

قلت:

"نعم قرأته"، وانشغلت بإخراج السدادة من عنق زجاجة النبيذ، ثم تنسمت الرائحة الصاعدة منها كما يفعل الذواقة العارفون بأنواعه، فسألتني:

"لماذا تستنشق رائحة النبيذ؟ هل تخشى ألا يكون طازجاً؟"

"لا.. كلما كان النبيذ قديماً معتقاً كلما كان مذاقه أفضل. من المفروض أن الرائحة تقول شيئاً عن نوع النبيذ."

"هل أنت خبير بالأنواع، أم أنك تُمثل عليَّ؟"

ضحكت:

"خطيرة أنت، الحقيقة أنها كانت حركة فيها تقليد."

سكبت قليلاً من النبيذ في كأسها فرشفت منه في بطء. قالت:

"لذيذ فعلاً. قل لي ما الذي تتمناه في عيد ميلادك؟"

قلت:

"طبقاً من كباب لحم الضأن المشوي. سئمت من الطعام المنزوع الدسم."

"سأصنعه لك باكر، وبعد ذلك؟"

"أن تنتهي من سيناريو الفيلم الذي تكتبينه حتى أقرأه."

نظرت من النافذة وقالت:

"يبدو أن تمنياتك هذه لن تتحقق. لقد توقفت. لم يُعجبني ما كتبت. أشعر أنني حتى الآن لم أكتب شيئاً له قيمة."

قلت:

"اشربي معي نخب الثقة في النفس. هذا الإحساس ينتابني أغلب الوقت."

رفعت قامتها. قرعنا الكأسين وأخذت رشفة طويلة من كأسها. فعلت مثلها ثم أعدنا الكأسين إلى عتبة النافذة. قالت:

"لا أعرف لماذا تسلل إليّ الحزن فجأة. ذكرتني بأمي. كانت تُشجعني دائماً وتقول إن المستقبل مفتوح أمامي، إنني سأحقق ما أصبو إليه لأنني جديرة بذلك. كانت تُحذرني من الالتفات إلى نصائح أبي عن الزواج والبقاء في البيت، وتقول: "يُريدك أن تحشّي معه البرسيم في الغيط إلى أن يأتيك عريس يرضى هو عنه."

تذكرت صورة أمها جالسة على سريرها في معهد علاج أمراض الكبد. عاد إليّ وجهها الشاحب ملفوفاً في الطرحة السوداء، وأصابع

يديها المعقودة في حجرها وهى تنظر إليَّ وفي عينيها رسالة صامتة تقول: "حدسي يُنبئني أن بينكما يحدث شيء. كن حريصاً عليها." يومها نصحتني بأكل الرومان كأنها أدركت أن الدورة الدموية لديَّ محتاجة إلى تغذية تُساعد على تنشيطها.

ظل كل منا غارقاً في أفكاره ثم قالت:

"هذا النبيذ رائع فعلاً. أشعر أنه سرى في جسمي ناعماً، دافئاً كالقطيفة." قلت:

"إنه من مطار برشلونة، ماركة ريوخا المشهورة، لكن تُوجد منه درجات حسب السعر. هذه الزجاجة أهداها إليَّ الطلبة في جامعة برشلونة المستقلة عندما انتهت السنتان التي كنت أدرس فيهما هناك. احتفظت بها حتى اليوم. كنت أنتظر مناسبة مثل هذه."

قالت:

"أراك تشرب من النبيذ، لكنك لم تأكل شيئاً. ألم يُعجبك ما أعددته؟"

قلت:

"على العكس أنسب طعام للنبيذ هو هذه الأشياء البسيطة." مددت يدي وأخذت قطعة من الجبن الرومي والخبز. قالت:

"كنت أذهب مع أبي للبحيرات لنصطاد السمك. نستيقظ في الفجر. يمتطي الحمارة، ويحمل الأقفاص على ظهرها، وأجري أنا وراءها. كانت المياه التي نغطس فيها باردة كالثلج. عندما تمتليء الأقفاص بالأسماك أُمسك بها وأسحبها منها بيدي، فتنغرس الحرافش في جلدهما، وأشعر فيهما بما يُشبه النار، بشيء كالحريق. بعد أن أنتهي من تعبئة الأسماك في غلقان أو في غبيط أحملها على ظهر الحمارة مسافة سبع كيلو مترات إلى السوق لأقوم ببيعها."

سألتها:

"كيف؟ والمدرسة؟"

"في أيام الأجازات كنت أفعل هذا. كنت أعمل كذلك في مصنع للأحذية أقوم بخياطتها مقابل قروش أسلمها له. عملت أيضاً في سوبر ماركت للبقالة، وممرضة في عيادة، وعاملة في مصنع للأثاث. كنت مورداً للدخل بالنسبة إليه. أما أمي فكانت تتدخر نقوداً صرفتها عليَّ عندما ذهبت إلى الجامعة في القاهرة، والتحقت بها مجاناً بسبب تفوقي."

قلت:

"ودخل العمل الذي كنت تقومين به؟"

قالت:

"كنت أقتطع منه جزءاً أعطيه لأمي، وكنت لا أتوقف عن القراءة فأستعير الكتب من مكتبة المدرسة، أو من مكتبة عمي، أو أقوم أحياناً بسرقتها. هكذا انتقلت من قراءة سلسلة الأصدقاء الخمس، والسندباد البحري إلى المازني، والمنفلوطي، ويحيي حقي، وطه حسين." توقفت عن الكلام وألقت إليَّ بنظرة فيها اعتذار: "تركتني أطيل في الكلام عن نفسي."

مر الوقت وأنا سابح في بحر حياتها، في سحر الكلام والشراب والليل، في الضاحية الصامتة آوت إلى النوم. لم أشعر بالساعات تمر إلى أن تنبهت إلى ضوء الفجر يزحف بغموضه، آت من بعد.

قالت:

"أُريد أن أضمك إليَّ. هل تقبلني في عيد ميلادك؟"

قامت واطفأت المصباح المضاء في ركن الغرفة. تأملتها وهي تخلع ثيابها، وتُلقي بها على الأرض، كأن جسمها يصعد منها. تأملت خطوط

عريها الهاربة في ضوء الفجر. مدت إليّ ذراعيها فقمت. تركتها تخلع ملابسي. تركتها تستدرجني إليه، وترفعني على أمواجه ببطء لنصعد إلى قمة اللذة، قبل أن تُلقي بي إلى ذلك الليل الذي ينتهي فيه كل شيء.

الفصل الرابع
القـــــارئـــــة

البطـاطس... البطـاطس... ثلاثـة بخمسـة البطـاطس... ثلاثـة كيلـو بخمسة جنيه البطـاطس. صرخ الميكروفـون بـأعلى صـوته عـدة مـرات، تلتها حشرجة كأنه أُصيب بعطب. فتحت عينيَّ ونظرت ناحيتهـا. كانـت لاتزال نائمة. أخرجت الساعة من تحت الوسادة، وحملقت فيهـا. كانـت تُشير إلى التاسعة. أعـدتها تحـت الوسـادة، وانقلبـت عـلى جـانبي لأولي ظهري إلى ضوء النهار كان يمر من الفتحة التي تركناهـا أسـفل الشـيش. ظلت راقدة على بطنها، رافعة وجهها قليلاً عن الوسادة، كأنها في نومهـا تبحث في الأفق عن شيء.

جاءتني صرخة بائع البطـاطس مـرة آخـرى، ثـم سـاد الصمت كأنـه اجتـاز الميـدان. تخيلتـه وقـد انحـرف بسـيارته نصـف النقـل المحملـة ببضـاعته ليـدخل إلى الشـارع الـذي يقـود إلى المدرسـة، وليقـف أمامهـا استعداداً لتدفق المدرسات منها والتفافهن حولها ليبتعن ما يحتجن إليه قبل أن يتجهن إلى بيوتهن، تبعه باعة الطماطم، واليوسفي، والبصل، ثـم

عـاد الصـمت فانشـغل ذهنـي بصـور متفرقـة، بمظـاهرة أول مـايو في برشـلونة والجمـوع تهتـف يسـقط أزنـار... يسـقط أزنـار، وإلى جـواري إيزابيل السمراء تكاد ترقص وهى سائرة، بشارع الرامبلا في الربيع يُعيـد إليَّ أكشاك الزهور، وأنغـام القيثـارة، والرجـل الـذي كـان يُطـلي جسـمه بلون فضي كالتمثال ثم يقف طوال ساعات النهار دون أن يُحـرك سـاكناً ليضع أفراد من الجموع المتدفقة البيزتات في قبعته. سمعتها تسأل:

"هل أنت صاح؟"

قلت:

"نعم.. صباح الخير يا جميلة. تذكرت اسم الحلوى."

"الحلوى؟"

"نعم، تلك التي سألتيني عن اسمها بالأمس. اسمها مارزيبان."

"ماليبان؟"

"لا.. مارزيبان.. مارزيبان."

أغلقت عينيها، وعادت إلى النوم. لم تكن لديَّ رغبة للنوم، ولا لـترك السرير، فشعرت بالإحباط، لكـن بعـد قليـل سرحـت مـن جديـد. مـرت خمس سنوات منـذ لقائنـا الأول. كنـت وحـدي في ذلـك اليـوم. سـافرت نوران إلى انجلترا لإلقاء بعـض المحـاضرات في جامعـة ساسـكس. وكنـت أتأهب لحضور ندوة عن أدب يحيى الطاهر عبد الله عنـدما دق جـرس التليفـون الموضـوع عـلى رفّ في المكتبـة. أسرعـت إلى الصـالة ورفعـت السماعة. جاءني صوت امرأة يقول:

"مساء الخير.. هل منزل الأستاذ عزت المرشدي؟"

قلت:

"نعم."

سألتني:

"هل يُمكن أن أتحدث إليه؟"

قلت:

"أنا عزت المرشدي. مَنْ حضرتك؟"

قالت:

"أنا اسمي أمنية مروان. أرجو ألا أكون أزعجت حضرتك."

قلت:

"لا... أبداً."

قالت:

"قرأت روايتك المصيدة، وأعجبتني جداً."

قلت:

"أشكرك." وصمت.

قالت:

"لديَّ بعض الأسئلة عنها، وأرغب في مناقشتها معك."

قلت:

"حضرتك صحفية؟"

قالت:

"لا.. أنا قارئة."

ترددت، لكن خطر في بالي ألا أحد من القراء كان قد طلب مناقشتي في رواية كتبتها. تملكني الفضول، وشيء من الزهو. قلت:

"اليوم هو الأربعاء.. أليس كذلك؟"

قالت بعد لحظة:

"لا... اليوم الخميس ٢٢ أبريل سنة ٢٠٠٤."

أعجبتني مسحة السخرية فيما قالته، فضحكت، ثم قلت.

"شكراً على هذه المعلومة.. ما الموعد الذي يُناسبك؟"

قالت:

"لا.. حضرتك حدد الموعد الذي يُناسبك."

اتفقت معها على يوم الأحد ٢٥ أبريل الساعة السادسة مساءً، ووصفت لها طريق الوصول إلى البيت، ثم أغلقت الخط. في اليوم المحدد لموعدي معها كنت جالساً على مكتبي قرب النافذة المطلة على النيل في إمبابة أكتب رسالة للمشرف على الفدادين الخمس التي تركها أبي لأولاده بعد وفاته، عندما سمعت رنين جرس الباب، فقمت إليه وفتحته. على العتبة كانت تقف أمامي امرأة على بعد من الباب كأنها مترددة بين الانسحاب والإقدام. كانت ترتدي سترة مغلقة على صدرها لونها أزرق فاتح، وبنطالاً من ذات اللون. شيء ما أوحى إليَّ أن هذا الرداء المحافظ هو ما تختاره اتقاءً لاحتمالات اللقاء مع غريب، لكن ما لفت نظري أكثر منه كان صفاء عينيها، صفاءً يدعو إلى الاستغراق فيهما، وهذا ما حدث لي إلى أن قالت:

"مساء الخير. أنا أمنية مروان، حضرت حسب الموعد الذي حددته لي."

قلت:

"أهلاً وسهلاً.. تفضلي"، وأفسحت لها الطريق حتى تتقدم إلى الصالة، ثم أغلقت الباب ولحقت بها. كانت تقف أمام المكتبة كأنها تُلقي نظرة سريعة على الكتب، فتركتها تفعل قبل أن أسألها:

"هل تفضلين أن نجلس على الشرفة، أم هنا في الصالة؟"

كانت النافذة العريضة مفتوحة على الشرفة، فتأملتها ثم قالت:

"أُفضل الجلوس على الشرفة"

توجهت إلى الشرفة، وأشرت إلى مقعد من الخيزران المبطن يسهل منه رؤية النيل، فخرجت إليه وجلست حاشرة حقيبة اليد التي كانت تحملها بينها وبين أحد المسندين. سألتها:

"هل وصلتِ إلى البيت بسهولة؟" فقالت:

"نعم.. وصلت مبكراً عن الموعد فتنزهت قليلاً إلى جوار النيل. النسمة هنا مريحة."

"هل سكنك قريب؟"

قالت:

"لا.. بالعكس هو بعيد، فخشيت أن أتأخر عن موعدنا."

قلت:

"لابد أنك تشعرين بالعطش. يُمكن أن أصنع لك عصير ليمون، أو شايًا أخضر بالنعناع، أو ربما تُريدين شاياً عادياً؟"

"لا.. لا أريد أن أتعبك." صمتت لحظة ثم قالت: "ربما شاي أخضر بالنعناع."

ذهبت إلى المطبخ، وعدت بعد قليل حاملاً صينية وضعت عليها براد الشاي، وسكرية، وزجاجة مياه، وبعض الفطائر. شربت كوباً من الماء، ورفضت أن أضع لها سكراً في الشاي، أو أن تأكل من الفطائر.

في ذلك اليوم ظللنا نتحدث إلى أن تجاوزت الساعة التاسعة مساءاً. فوجئت بها ملمة بأدق تفاصيل الرواية إلى درجة كانت معها تُذكرني بأشياء فيها نسيتها. كانت منفعلة بها، بالشخصيات، والأحداث التي

جاءت فيها، فقضيت معها هذه الساعات في حالة من الاستمتاع، بل والانفعال لم يحدث لي في أية مناقشة دارت معي عن رواية من رواياتي. في لحظة من اللحظات أدركت فجأة أن الوقت كله مضى في الحديث عني، أنني سقطت أسيراً للعشق الذي أبدته لما كتبته في هذه الرواية، ولصدق انفعالاتها، فبدأت أسألها عن حياتها. قالت لي إنها وُلدت في قرية تابعة لمحافظة دمياط، وأنها تخرجت من كلية الإعلام، لكنها مغرمة بالسينما، وعلى الأخص السينما التسجيلية. لم تحك إلا القليل عن نفسها. كانت معرضة عن الإسترسال في الكلام عن حياتها، وفي لحظة توقفت ونظرت إلى ساعتها قائلة:

"أنا آسفة. أضعت لك وقتك بالكلام عني. الوقت تأخر ولابد أن أنصرف."

أوصلتها حتى المصعد وانتظرت حتى جاء. شددت على يدها، وعبرت عن شكري لزيارتها لي وقلت لها إنني استمتعت بها. هبطت حاملة في حقيبتها طبعة جديدة من رواية المصيدة كتبت فيها إهداءً قلت فيه: "إلى أمنية مروان.. بمناسبة لقائنا الجميل. عزت المرشدي."

لم نتواعد على لقاء آخر. مرّ شهر، وفي أحد أيام الحارة لشهر مايو رنّ جرس التليفون. جاءني صوتها وهى تقول:

"صباح الخير." ثم أضافت: "أستاذ عزت المرشدي؟" قلت: "نعم أنا."

قالت:

"أنا أمنية مروان.. هل تتذكرني؟"

الفصل الخامس

زورق ثقيل يزحف على النهر

رفعت يدي وسحبت من على الرف رُزمة من أوراق الدشت التي أكتب عليها بخط يعلو، ويهبط، ويتعثر، ويضع النقاط في غير أماكنها، فقد تزايد الارتعاش في أصابع يدي. أبذل جهداً مُضنياً وأنا أكتب لكي أتغلب عليه، فيستجيب لهذا الجهد كلما استغرقت، كأنه عندما أتغاضى عن وجوده يُدرك ألا فائدة من الاستمرار في ألاعيبه. أصبحت عندي الكتابة باليد مثل حفر الفلاح بفأسه في أرض جافة صلبة السطح، فأسقط بعدها في النوم بعمق. أحياناً أعجز عن قراءة بعض ما كتبت فألجأ إلى أمنية لتقرأه، أصبحت قادرة على فك طلاسم هذا الخط.

وأنا أرفع يدي أحسست بوخزة من الألم في فقرات الظهر. زحفت الخشونة عليها، مما يُجبرني على الانحناء أثناء السير. يخطر في بالي أنه إلى وقت ليس بالبعيد كنت أعدو مسافة خمس أو ست كيلو مترات على كورنيش النيل، فأدرك أن التدهور في كفاءة الجسم تتزايد سرعته كلما اقترب الإنسان من لحظة الموت. عندما ألمح الشباب وهم يتريضون

في الصباح أشعر بالأسف على الساعات الجميلة التي كنت أعدو فيها فوق المسافات في ضوء الفجر، أما هي فأراها وهي تتحرك في الشقة بليونة فتاة الريف، اكتسبتها من العمل الشاق، من رفع البلاص، أو صفيحة المياه على الرأس، أو حِمل كبير من الحطب الجاف، من حش البرسيم أو ضم الغلة والأرز. أقول لنفسي ليتني التقيت بها وأنا شاب، فأتذكر أنه في هذا الوقت كانت مقاييسي في الحياة مختلفة عنها الآن. كنت مزهواً بما كانت تقوله عني أختي زينة، "وسيم وسامة الشيطان يُصاب البنات بالهوس عندما يمر أمامهن." هذا قبل أن تتحجب، وتزور بيت الله الحرام فأصبحت تُرسل إليّ خطابات تنصحني فيها بالتوبة قبل أن أقف أمام ربي في يوم الحساب، وتقول عن حبي لأمنية أنه خرف رجل عجوز يُحاول أن يستعيد شباباً ضاع منه.

عاد إليّ كلامها وأنا أسطر كلماتي الأولى في هذا الصباح، فأفلت من يدي القلم. تركته جانباً فألقت إليّ أمنية نظرة فيها قلق، ثم سألتني:

"أين الفصل الذي انتهيت منه بالأمس؟ اعطني إياه حتى أكتبه على الكومبيوتر."

أخرجت الفصل من الملف الذي حفظته فيه، وأعطيته لها. سألتني:

"لماذا لم تعطني اسم الرواية؟"

قلت:

"لم أستقر عليه بعد. سأختار العنوان عندما أنتهي من كتابتها. أحياناً أبدأ بالاسم فيكون كالبوصلة التي تُخرجني من الفوضى التي أُعاني منها في بداية كل رواية أكتبها."

تناولت مني الأوراق، ثم جلست أمام الكومبيوتر وبدأت تكتب تلك الصفوف المنتظمة التي يسهل عليّ مراجعتها، وتعديل ما أرى

تعديله، أو حذف جزء منها. أحسدها على قدرتها في التعامل مع هذا الجهاز الإلكتروني الساحر، على إيغالها في أسرار الإنترنت. أُرهق من الكتابة بالقلم، ومع ذلك لم أسع للتدرب على استخدام الكومبيوتر رغم إلحاحها عليَّ، واستعدادها لتعليمي. أشعر أنني كسول، لا أحاول أن أتعلم الجديد. تعودت استخدام القلم، والتحرك في نطاق إمكانياته، فالعادة يصعب عليَّ تغييرها. أفتقد الإرادة. أرتاح إلى القلم. أتتبعه وهو يخط الحروف على الورق سائراً كالزورق الثقيل على سطح النهر، بطيء لكن بطئه يمنحني فرصة للتفكير، للبحث في مياهه العميقة، لرؤية الكلمات وهي تتحرك كالأسماك، فرصة لتأمل الضفاف، والصيادين، والنساء والرجال والأطفال السائرين، والغيطان والسماء المفتوحة، فرصة لتأمل العالم وما فيه، فأنا من جيل قديم أعشق ركوب القطار البطيء الذي يُتيح لي رؤية الطبيعة، فعندما سافرت في القطار الأوروبي السريع، ونظرت من النافذة لم أر شيئاً. إنه العصر الذي وُلدت ونشأت فيه.

قلت لها:

"أغار منك، مما تستخرجينه من هذا الجهاز، من المعارف التي يفتح لك أبوابها."

ظلت عيناها مثبتتين في الشاشة، ولم تعلق. طال صمتها ثم قالت:

"المهم في كل هذا هو القدرة على الإبداع. المعلومات كثيرة."

قلت:

"لكن المعلومات يُمكن أن تكون في خدمة الإبداع."

هزت كتفيها وقالت:

"أتعشم ذلك، ثم سألتني : "هل تعرف ما الذي ستكتبه بعد هذا الفصل؟"

قلت:

"عقلي الآن كالوعاء الفارغ. سرت بالخطوة السريعة ثم توقفت."

ابتسمت:

"غداً سأراك جالساً إلى جوار النافذة، سارحاً في شيء بعيد عني، كأنني لم أعد موجودة بالنسبة إليك. فهناك ما هو أهم مني.أليس كذلك؟"

قلت:

"عندك أنت أيضاً ما هو أهم مني؟"

قالت:

"مع ذلك أُريد أن تشعر بوجودي، حتى عندما تترك النافذة وتعود إلى مكتبك كأنك مصاب بحمى لا علاج لها سوى القلم الذي تُمسك به. أحسد قلمك لأنه ينفيني من دنيا العشق التي جمعت بيننا."

واثقة من نفسها، متشككة دائماً. أحسست بالقلق. تستعجل الأمور في زمن لا نعرف إلى أين سيسير بنا. قلت:

"لا تقلقي. لكل شيء أوانه."

قالت:

"كلامك هذا يُزيدني توتراً. عندك القدرة على الانتظار. أما أنا..."

صمتُّ ثم سألتها:

"ما رأيك في قدح من النسكافيه باللبن؟"

هزت رأسها بالموافقة وفي عينيها نظرة مَن لا تراني جالساً أمامها، فتركتها وذهبت إلى المطبخ. وضعت وعاءً فيه ماء على الموقد، وانتظرت حتى ظهرت أولى الفقاعات، ثم قمت بصبه على حبيبات النسكافيه، وحملت القدحين إلى حيث كانت جالسة. نظرت إلى القدح الذي وضعته إلى جوارها وسألتني:

"أين اللبن؟"

قلت:

"نسيته في المطبخ. سأحضره حالاً."

قالت:

"لا داعي.. أُريد أن أشعر بمرارة القهوة. يبدو أنك كنت سارحاً في شيء."

قلت:

"تذكرت الفترة التي عدت فيها من أسبانيا. قبل أن أسافر كنت قد أخرجت فيلماً عن مدينة بورسعيد، والتطورات التي حدثت فيها ما بين هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧، ووفاة عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠، لكن السلطات صادرته. قالت إن فيه معلومات لا يجوز أن تُعرض على الشاشة. حققت معي المخابرات، واحتجزتني لمدة أسبوعين سافرت بعدهما إلى أسبانيا. لما عدت أردت أن أصور فيلماً عن قريتي كفر الحداد فأوقفت التصوير بعد أن اقتربت من إنهائه. كنت بلا عمل ثابت، وصرفت أغلب ما كان معي من موارد. بحثت عن عمل في مجال السينما، أو في شيء يتعلق بالثقافة دون جدوى. علمت بالصدفة أن أحد أقارب الأسرة كان ضابطاً في الجيش، ثم عُين مستشاراً في وزارة الثقافة بعد أن أُحيل إلى المعاش."

قالت:

"قهوتك أصبحت باردة. اشربها ثم أكمل الحكاية."

أخذت رشفات من القهوة وقلت:

"ربما تريدين مواصلة كتابة المقال الذي كنتِ منشغلة به في الصباح. ضاع وقتك في كتابة جزء من فصل الرواية، والآن ستضيع منك البقية في هذه الحكاية."

"لا.. أُريد أن أسمعها، أو ربما ترغب أنت أن تفعل شيئاً آخر."
قلت:
"ذهبتُ لزيارة المستشار. استقبلني بترحاب وعمل من البحر طحينة، لكن في النهاية لم يفعل شيئاً. ربما اطلع على تقرير المخابرات، فاتصلتُ بأختي زينة."
"رغم سوء العلاقة التي كانت قائمة بينكما؟"
قلت:
"كنتُ بلا عمل يا أمنية، وأحياناً كنت بلا طعام. زينة كانت قد تزوجت من أحد كبار المقاولين، ضابط سابق هو أيضاً. تولت شركته العديد من مشاريع البناء التحتي، ثم زينة كانت في وقت من الأوقات أقرب شقيقاتي إليَّ. في شبابها كانت تغني في فرقة موسيقية، وتُحب زميلاً لها كان يعزف على الساكسفون."
"الساكسفون؟"
"نعم، إنها آلة هوائية يهواها عازفو الجاز، والبلوز. سأُسمعك اسطوانة كلها عزف على الساكسفون."
"وما هى البلوز؟"
"موسيقى الزنوج في أمريكا منبعها مدينة نيو أورليانز في الجنوب. موسيقى حزينة فيها حنين إلى أشياء كثيرة."
"عندك اسطوانة بلوز؟"
"أغلب الظن أن هذه الاسطوانات موجودة في بيت كفر الحداد. تركتها هناك. عندي أيضاً كل أغاني فيروز، والسيد درويش، وعدد كبير من الاسطوانات الأخرى."
"لكنك لم تقل لي ما الذي تم عندما اتصلت بزينة؟"

قلت:

"حكاية طويلة يُمكن أن أحكيها لك مـرة آخـرى. أعتقـد أن عنـدي هنـا اسطوانة واحدة للبلوز. هل ترغبين في سماعها؟"

نظرت إليَّ لحظة في صمت ثم قالت:

"نعم. يُمكن أن نستمع إليها."

الفصل السادس

وللحب أطواره

انشغلتْ أمنية بتصوير فيلمها الجديد عن حياة النساء التي تعملن خادمات في البيوت، أو في الفنادق، أو في المستشفيات. كانت تخرج في الصباح ولا تعود إلا في ساعة متأخرة من الليل. عندما تعود كان يبدو عليها علامات التوتر. تبقى صامتة، أو تنطق بكلمات قليلة. إذا سألتها تُجيب بعبارات هاربة. تملكتني الحيرة الممزوجة بالقلق لكني قررت أن أحترم صمتها، فهي قادرة على أن تُحدد متى يُمكنها أن تفاتحني في المشكلة التي كانت تشغل بالها، فقد كان واضحاً لي أن هناك فعلاً مشكلة.

في إحدى الليالي بعد أن تناولت وجبة سريعة، وارتدت ملابس النوم رقدت على السرير، فظننت أنها ستنام. أطفأت الأنوار ما عدا مصباح في ركن الغرفة كنت أقرأ على ضوئه. ظلت تتقلب على السرير، ثم فجأة قامت، وذهبت إلى الحمام. سمعت أصواتاً تُشبه النهنهة فقمت. نقرت على الباب عدة مرات قبل أن تفتح. خرجت وعلى وجهها آثار الدموع. أجلستها إلى جواري على السرير، فظلت صامتة ثم

انفجرت فجأة تحكي لي عن رجل الأعمال المنتج للفيلم، كيف يتعمد إذلالها. احتاجت إلى مبلغ إضافي لكي تقوم بتصوير مشاهد رأت أن هناك ضرورة لإضافتها، فظل يُراوغها. يتركها منتظرة في غرفة السكرتيرة وهو يتسامر مع أحد أصدقائه، أو مع امرأة كومبارس التقطها من أحد الأفلام، أو ينصرف فجأة لأمر تقول السكرتيرة إنه هام، ويطلب منها أن تُحدد لها موعداً آخر. إذا تمت معه مقابلة يقول لها إن أسعار الخام تضاعفت. استهواه موضوع الفيلم، والسيناريو الذي كتبته، لكنها تُريد أن تتجاوز الميزانية المقررة له، وهو على حد قوله ليس جالساً على تل من النقود، ثم يُضيف أنها حديثة العهد في مجال السيما، وهو لا يُريد أن يتحمل أخطائها. لابد إذن أن تلتزم بالميزانية كما وضعتها في البداية.

وصفته لي رجلاً ضخم الجثة، يختفي بياض عينيه تحت جفونه عندما تستقر على صدرها، أو على أجزاء أخرى من جسمها، كأنه يُثمن ما يراه، فلمحت الرعشة التي اجتازتها وهى تصف نظراته. قالت:

"أُريد أن يخرج الفيلم في أحسن صورة ممكنة، والمشاهد التي اقترحتها ستُعطيه أبعاداً فكرت فيها وأنا أقوم بتصويره. لن تُكلف أكثر من عشرين ألف من الجنيهات، وهو جالس فعلاً على تل من الأموال، الكثير منها من مصادر مشبوهة، ربما مخدرات أو سلاح. أصبحت أشك في نواياه. تلفت أعصابي وكدت أن أصبح عاجزة عن مواصلة العمل. لم أتحدث معك من قبل ذلك لأنني لم أُرد أن أزعجك وأنت مستغرق في الكتابة."

عادت الدموع تسقط من عينيها. بحثت عن منديل من الورق وأعطيته لها. وضعت يدي على كتفها النحيل، وقبلتها إلى أن هدأت ثم قلت:

"اصبري. لديك فرصة لعمل فيلم مهم وجديد. عندما يُدرك أنه لن ينال منك ما يُريده سيسلم بالأمر الواقع، ويمنحك المبلغ الذي تُريدينه.

الفيلم قارب على الانتهاء، وهو لن يترك أمواله تضيع هباءً بعد أن صرفها على الإنتاج. إنه يُدرك أن الفيلم سيجد رواجاً في الفضائيات. رجل حقير أريد أن أعبر له عن رأيي فيه.."

قاطعتني وقالت:

"أرجوك ابعد أنت عن الموضوع. أعرف انفعالاتك عندما تكون غاضباً. إذا تدخلت ستزداد المشاكل سوءاً. وقد يُمزق العقد، ولن أستطيع أن أفعل شيئاً. عنده أكثر من محام ضالع في التعامل مع مثل هذه المسائل. وإن توقفت سيُطاردني في المحاكم."

كانت قد فقدت الكثير من وزنها. حول عينيها زحفت قتامة زرقاء. قالت:

"الآن عندما أنظر في المرآة أشعر أنني أصبحت قبيحة."

قلت:

"المعاناة أضافت إليك جاذبية. أنت لست فتاة غلاف. أنت امرأة جميلة."

أشرق وجهها، وفي الصباح عندما قامت من النوم، نظرت في المرآة وقالت:

"راحت القتامة التي كنت أراها حول عيني."

أسرعت إلى الحمام وأخذت دشاً ثم ارتدت ملابسها، وبعد أن أجبرتها على ابتلاع إفطار من البيض والقهوة باللبن، جمعت أشياءها وانطلقت إلى باب الشقة. لمحتها من الخلف، ممشوقة القوام، ممتلئة الردفين، ترتدي القميص الأحمر والبنطال البني الفاتح اللذين ابتعناهما سوياً يوم عيد ميلادي. قبل أن تفتح الباب تداركت وعادت لتحتضنني ثم انطلقت من جديد.

جلست على المكتب وسرحت. هذه المرأة الرائعة لا أشك في حبها لي لكن للحب أطواره. ربما سيأتي اليوم الذي ستبحث فيه عن حياة آخرى. ترى إن تركتني كيف ستكون الحياة؟ أخشى الموت، لكن ما أخشاه أكثر هو أن ألقاه وأنا وحدي. ربما من الأفضل أن يجيئني فجأة، أن يختطفني في لحظة حتى لا تكون أيامي الأخيرة عبئاً عليها.

في ذلك اليوم رفض قلمي أن يُسعفني. ظلت الصور والكلمات محاطة بغشاوة أو كانت تفلت مني، أو عندما أسطرها أجدها فاقدة الإيقاع، فاقدة التوتر، مجرد كلمات بلا معنى. شعرت بالضيق، بفقدان القدرة على الاستغراق. قلت لنفسي لا داعي للاستمرار، وقمت من المكتب. خطر لي أنني كنت أصلح أكثر للعمل كمدرس، أن موهبتي متوسطة. كنت سعيداً وأنا في أسبانيا، في الجامعة المستقلة. تذكرت كيف أعطوني سكناً بسيطاً له حديقة خلفية كنت أجلس فيها وأقرأ، كيف كان الطلبة والطالبات ظرفاء. أحببتهم وأحبوني، وفي يوم رحيلي أقاموا لي حفلة للوداع. شربنا نبيذاً أبيض ورقصنا، وفي نهاية الحفل أهدوني تي شيرت، كتبَ عليه كل منهم جملة قصيرة بحبر خاص لا يتلاشى أثناء الغسيل. كتبت إحدى الفتيات "أنا أحبك، وهذا سر لم أبح لك به من قبل." تخيلتها قصيرة القوام، بيضاء البشرة تتأملني بعينيها الواسعتين كانت فيهما سيولة العسل الأسود.

قمت من المكتب، وبحثت عن التي شيرت إلى أن وجدته في خزينة الملابس. بسطته على السرير، وقرأت الجمل المكتوبة عليه. لم أرتديه أبداً. لم أجرؤ. الوحيدة التي رأته هى أمنية. ضحكت وقالت: "يبدو أنك كنت نمرة، وربما لازلت. يجب أن أحتاط منك." أعدته إلى مكانه، وجلست من جديد على المكتب. أمسكت بكتاب عنوانه السينما نحت في الزمن. الكتابة نحت هى أيضاً، لكن اليوم يبدو أنني عاجز عن

النحت. أمسكت بالأوراق التي كتبت عليها بعض السطور، وألقيت بها في الكيس الأزرق الذي نضع فيها المهملات، لكن بعد تفكير استعدتها من الكيس. ذهبت إلى المطبخ وأخفيت القصاصات في صندوق القمامة، فقد كانت حريصة على الاحتفاظ بكل ورقة أخط عليها، حتى الخربشات الغريبة الموجودة في المسودات. تضعها في ملفات تحتفظ بها على رف في المكتبة إلى جوارها، فألاحظها وهى ترمقها بين الحين والآخر، كأنها تطمئن أنها مازالت موجودة في مكانها.

عادت إلى البيت في هذا اليوم قرب التاسعة مساءً. كان يبدو عليها التعب لكن فور أن دخلت من الباب قالت بصوت تردد فيه رنين السعادة:

"يا عزت، أخيراً وافق الرجل على إعطائي المبلغ الإضافي لكن ليس كله. اقتطع منه خمسة آلاف جنيه. قال إنها عقوبة، درس يُلقيه عليَّ حتى لا أكرر ما فعلته مرة أخرى. قال إنني سأحمل له هذا الجميل في المستقبل."

كنت قد أعددت عشاءً من المكرونة بالجبن المبشور، وصلصة الطماطم أضفت إليها قليلاً من البهارات، ومعها شرائح من الكبدة المقلية مع البصل. أكلت بشهية، لكن بعد أن انتهينا رفضت أن أقوم بغسل أدوات الأكل، فلمحتها منتصبة أمام الحوض، وجفونها المثقلة بالرغبة في النوم تسقط على عينيها.

دخلنا إلى الفراش قرب الساعة الحادية عشرة. أسندت رأسي على صدرها صار يرتفع وينخفض بحركة بطيئة مثل أمواج البحر في الخريف، فأدركت أنها نامت. سرح ذهني في حوار أعجبني وقع كلماته كأن إيقاع صدرها حملني معه إلى عالم الشعر، فسحبت ذراعي من تحت رأسها، وعدت لأجلس على المكتب. أضأت مصباح القراءة،

وأمسكت بالقلم، وبعد قليل بدأت حروفي السوداء تزحف على الورق. لم أتوقف إلى أن تهادى إليّ أذان الفجر من الجامع. أطفأت المصباح وقمت. وجدتها مستغرقة في النوم، باسطة ساقيها بعرض السرير، كأنها استغلت غيابي لتستمع بالحركة الحرة لأطرافها، لكن عندما اقتربت حركت ساقيها لتُفسح لي مكاناً كأنها أحست بوقفتي قرب السرير، فتسللت بهدوء إلى جوارها.

الفصل السابع

في حديقة أحمد رامي

"كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً عندما أيقظتني حركتها. قالت:

"يُمكنك أن تُواصل النوم. استيقظت أثناء الليل ولم أجدك إلى جواري. مصباح المكتب كان مضاءً فأدركت أنك قمت. لابد أنك متعب."

قلت:

"لا.. أشعر برغبة في القيام."

قالت:

"إذن عندي اقتراح. لماذا لا نستغل وجودنا في شقتنا؟ اليوم لا يُوجد تصوير. أريد أن أتنزه إلى جوار النيل. سئمت رمال الشيخ زايد. يُمكنني أن أُعد وجبة خفيفة، وأن نقضي بعض الوقت على شاطيء النيل."

قلت:

"فكرة جميلة."

أعددنا تورمساً من الشاي، وبعض الساندوتشات أضفنا إليها حبات من الطماطم، وأوراق الجرجير والخس. وضعنا كل هذا في حقيبة من القماش ملفوفاً في ورق شفاف، وهبطنا. سرنا حتى كوبري الجامعة. اجتزنا الكوبري وواصلنا لمسافة قصيرة على شاطيء المنيل، ثم دخلنا في حديقة أحمد رامي، وجلسنا على دكة نتأمل المساحات المفتوحة أمامنا، وموجات النيل الصغيرة وهى تُبرق في الشمس. وأنا أقضم في ساندوتش من التونة والبصل قالت:

"لم تُكمل ما كنت تحكيه لي عما جرى بعد أن عدت من أسبانيا. قلت لي إنك زرت قريبك المستشار في وزارة الثقافة، وأنه لم يفعل شيئاً، فقررت أن تلجأ إلى شقيقتك زينة لعلها تقترح عليك شيئاً، ثم صمتّ فجأة."

"صمتُّ فجأة؟ ربما مللت من الحكي." قالت:

" أريد أن أسمع البقية إن لم يكن لديك مانع. ربما لم تلجأ إلى أختك."

"لا.. ذهبت إليها. وجدت امرأة تغيرت حياتها تماماً بعد أن تزوجت رجلاً غنياً كان يملك شركة مقاولات هو وشقيقه الأصغر منه. كانت تُقيم في فيلا من دورين أعلى إحدى العمارات التي كان يملكها. زوجها كوَّن ثروة من القيام بمشاريع تتعلق بالبناء التحتي أوكلتها الحكومة إليه. لما رأتني يبدو أنها لاحظت عليَّ علامات التعب التي كنت أعاني منه، فأحضرت لي وجبة أصرت أن أتناولها قبل أن نبدأ في الكلام. ظلت تتأملني وأنا أجبر نفسي على الأكل ببطء وفي عينيها نظرة تعني أنها نبهتني مراراً إلى أن الطريق الذي اخترته لنفسي لن ينفعني. مع ذلك أحسست بأنها تحمل لي مشاعر متناقضة، قدراً من عطف الأخت، وقدراً من الزهو لأنني لجأت إليها. أكلت جزءًا مما أحضرته لي. أثناءها كانت عيني تلتقط قبح الأثاث المتزاحم في الغرفة، والتحف المتناثرة في

كل مكان، لكن لمحت وأنا جالس صورة لأمي، فسألتها إن كانت لديها صورة أخرى. كانت عينيها في الصورة تُوحي بأنها تريد أن تقول لي شيئاً."

قالت:

"يا عزت. أنا واثقة من أنك كاتب وفنان، وأن هذه التفاصيل تحكيها لاستخدامها في رواية، لكن يُمكنك أن تحكيها لي في الفراش لتساعدني على النوم. الآن أريد أن أسمع منك ما حدث نتيجة لقائك معها."

"المهم حكيت لأختي ما تم، أو بالأحرى ما لم يتم بعد زياراتي للمستشار. كانت منصتة على غير عادتها، فزينة أختي لا تُنصت. بعد أن انتهيت ظلت صامتة كأنها تُفكر، ثم أخبرتني أن لديها صديقة عندها علاقة بزوجة وزير الثقافة، وأنها على استعداد للتحدث إليها عن وضعي لعلها توافق على إثارة الموضوع مع زوجها. قالت إن هذه الصديقة تعمل أستاذًا مساعدًا في كلية الآداب قسم التاريخ، وأنها امرأة ذات شخصية إذا وعدت تفي بوعدها، واقترحت عليَّ أن تحدد لي موعداً معها، فربما وافقت على أن تتدخل لدى صديقتها من أجلي."

صمتُّ قليلاً لأخذ قضمة آخرى من الساندوتش، وسرحت في صورة أختي زينة كانت يومها ترتدي جلباباً من الكشمير الأسود عليه فصوص تلمع، فنبهتني أمنية سائلة:

"وبعد ذلك ما الذي حدث؟"

قلت:

"سأكمل القصة بعد أن أنتهي من هذا الساندوتش.أنا جائع فعلاً، ولا أستطيع أن أتكلم وفمي مليء بالتونة."

قالت:

"هو مسلسل تريد أن تحكيه لي على حلقات. لن أدفع مقابل كل حلقة شيئاً."

قلت:

"ربما قبلة."

قالت:

"ربما.. المسلسل كم حلقة؟ قل لي على الأقل من هى المرأة التي اقترحت عليك زينة أن تسعى إليها حتى تتدخل لدى زوجة الوزير؟"

سقطت على رأسي فضلات عصفور حط على الشجرة التي كنا جالسين في ظلها، فأخرجت منديلاً من الورق، ومسحت بها على رأسي، ثم كررت سؤالها.

قلت:

"زوجتي نوران منصور."

صبت لنفسها كوباً من الشاي، وظلت ممسكة به دون أن تشرب منه. سألتني:

"لماذا توقفت عن الأكل، ألم تُعجبك الساندوتشات؟"

قلت:

"على العكس إنها لذيذة جداً." وأخذت قضمة من الساندوتش الذي كان في يدي.

قالت:

"فعلاً؟".. ثم حملقت في مياه النيل دون أن تقول شيئاً.

الفصل الثامن

عودة نوران

في تلك الليلة غادرت المطار قبل الفجر. كان الشهر رمضان، والشوارع خالية على غير العادة في هذا الشهر، لا مشاه، ولا سيارات، ولا ضجيج المدينة العملاقة التي لا تنام. فقط مساحات الليل تتلألأ فيها الأضواء، وشيء كالهدير الخافت، البعيد قطعه أنين شاحنة فنطاس تحمل الوقود إلى إحدى المحطات لمحتها وهى تصعد الكوبري كالدودة الصفراء.

صرت أتأمل الشوارع اللامعة وأنا جالس في سيارة للأجرة تُسرع فوق الطريق دون أن يصدر عنها صوت، كأنها محمولة على الريح، شاعراً أنني أصبحت في دنيا غير الدنيا التي عرفتها، واعتدت عليها، كأنني سقطت من حافة الكرة الأرضية وأصبحت مجرد كائن وحيد محلقاً في الفضاء، في عالم آخر لا علاقة لي به، كائن ترك نفسه ليسبح في المساحات الساكنة. فأنا المستيقظ الوحيد في العالم صار ملكي، هو والليل، حتى الاضطراب الراقد في أعماقي بدا كأنه رفع على نفسه غطاءً سميكاً من الصوف لينام مثل المدينة. في لحظة آتاني أذان الفجر مكتوماً كأنه صعد من قبر في المدافن

لمحت أشباحها على جانب الطريق، فعدت إلى الواقع الذي كنت فيه، إلى جلستي على مقعد إلى جوار نوران. ذهبت إلى المطار لأستقبلها عائدة على طائرة لوفتهانسا من مدينة فرانكفورت. جلست في صالة الانتظار مُحاطاً بالرخام، بالكروم اللامع، والبياض الناصع للجدران. تردد الميكروفون معلناً عن وصول طائرة، وبعد ثلاثة أرباع الساعة خرج ذلك المزيج الغريب من البشر الذي يأتي عادة من الخليج. تتبعتهم وهم يدفعون أمامهم العربات المحملة بالحقائب تبدو أنها ستنفجر من كثرة ما تحمله في داخلها، فأدركت أن هناك زحام، وأن الانتظار سيكون طويلاً. قمت لأتجول في المطار وبعد ما يقرب من نصف الساعة لمحتها خلف الحاجز الزجاجي تنتظر وصول حقائبها. خرجت تدفع أمامها عربة محملة بحقيبتين، وبصناديق من الورق المقوى رجحت أنها مليئة بالأوراق، والمطبوعات، والكتب التي تعود بها كلما سافرت في رحلة إلى الخارج. لمحتني واقفاً أنتظر فمنحتني ابتسامة فاترة. اقتربت منها وقد خطر في بالي أن أعانقها، لكن ابتسامتها، والنظرة الخاطفة، المحايدة، التي كانت على وجهها عندما اقتربت جعلاني أتراجع. مددت يدي فأمسكت بها بين أصابعها لمدة لحظة، ثم تركتها، سألتني:

"كيف حالك؟ صحتك على ما يرام؟"

قلت:

"لا بأس. صحتي على ما يرام، وأنت كيف حالك؟"

قالت:

"أشعر بالإرهاق."

قلت:

"لابد أن الرحلة كانت متعبة. فلنجلس قليلاً."

أشرت إلى مقاعد خلت من المنتظرين فحركت العربة نحوها، وجلست واضعة حقيبة يدها على المقعد إلى جوارها، بحيث تفصل بيننا. انتظرت إلى أن استقرت في مقعدها. سألتني من جديد عن صحتي، فكررت ما أجبت به من قبل. حملقت في وجهي وقالت:

"تبدو عليك علامات الكِبر."

قلت ضاحكاً:

"طبيعي لقد كبرت بالفعل." وأضفت: "لكن أنت لم تتغيري."

ألقت إليّ بنظرة متشككة وقالت:

"صحيح؟ لكن عيناي لم تعودا كما كانتا."

قلت:

"إنه إرهاق السفر. عندما تستريحين ستزول علامات التعب عنهما."

سألتني:

"هل أنت مقيم في شقة الدقي؟"

قلت:

"نعم."

"وهل لازلت على علاقة بصديقتك؟"

قلت:

"نعم."

قامت من جلستها على الفور، وامسكت بمقود العربة. قالت:

"أريد أن أنصرف الآن."

قلت:

"لا تُوجد سيارات للأجرة عند باب الانصراف. خصصوا لها موقفاً في المطار يبعد عنه مسافة. لابد أن تستقلي الأتوبيس قرب باب الخروج ليحملك إليه. سأنصرف أنا أيضاً بالوسيلة نفسها."

قالت:

"أريد أن أذهب وحدي." ثم مدت يدها إليّ وشدت عليها قبل أن تُضيف: "شكراً على حضورك إلى المطار."

سبقتني إلى باب الخروج وهى تدفع عربة الحقائب الثقيلة أمامها. رأيتها وهى تُسلم أمتعتها للسائق حتى يضعها في الخزينة، ثم وهى تصعد على السلم. ركبت في الأتوبيس الذي قام بعدها لكن عندما وصلت إلى الموقف لم أجد لها أثراً. فأشرت إلى إحدى سيارات الأجرة انطلقت بي خارجة من المطار، وفي أعماقي مشاعر مختلطة غلب عليها إحساس بالفتور كأنه لم يعد هناك في الحياة ما هو مهم. طلبت من السائق أن يُطفيء الراديو. قال:

"عندي اسطوانات لمحمد منير، وإيهاب توفيق يُمكنني أن أسمعك إحداها."

قلت:

"شكراً، لا أريد أن أستمع إلى شيء، فأرجو منك أن تُبطل الراديو"

تطلعت من النافذة إلى كلب صغير كان يسير في الشارع قرب أحد المفارق التي أبطأ السائق سرعته عنده. توقف الكلب لحظة، ونظر خلفه، وقد بدا عليه التوجس، ثم استأنف سيره. عندما أصبحنا على مسافة قصيرة من البيت أخرجت حافظة نقودي من جيب البنطال، وأشرت إلى العمارة التي أُريد أن يتوقف عندها. أعطيته الأجر وقلت: "كل سنة وأنت طيب،" فهز رأسه وأجاب: "وحضرتك طيب يا حاج."

التفت وأنا أنتظر المصعد النازل من أحد الأدوار، فلمحته وهو يُشعل سيجارة ثم ينطلق بسيارته.

أدخلت المفتاح في الباب بحرص حتى لا يصدر عنه صوت فتستيقظ أمنية، لكن ما أن دخلت في الصالة حتى سمعتها تقول:

"وصلت؟ يُمكنك أن تُضيء النور فأنا لست نائمة."

وجدتها جالسة في السرير، قلت:

"مازلت مستيقظة حتى الآن؟"

قالت:

"لا.. نمت، واستيقظت منذ قليل."

قلت:

"أقلقت نومك."

قالت:

"لا.. أبداً. نمت واستيقظت وحدي. لابد أنك مرهق."

"لست مرهقاً، أريد فقط أن آكل شيئاً، ربما علبة زبادي ومعها عسل أسود."

قامت من السرير واحتضنتني، ثم ذهبت إلى المطبخ. عادت بالزبادي والعسل وبعض من قراقيش الرجيم التي أتناولها. خلعت ملابسي، واغتسلت، ثم ارتديت جلباباً وجلست إلى جوارها صامتاً. عندما انتهيت من علبة الزبادي سألتني:

"هل كان لقاؤك مع نوران طيباً؟"

رفعت كتفيَّ وخفضتهما دون أن أجيب.

قالت:

ماذا تعني بهذه الحركة؟"

قلت:

"لم يكن طيباً، ولم يكن رديئاً. كان مجرد لقاء لم يدم أكثر من خمس دقائق."

قالت:

"ربما لا تريد أن تحكي."

قمت إلى النافذة وفتحتها لأطل منها. بدأ زحام النهار يملأ الشارع.

قالت:

"يبدو أنك لا تريد أن تحكي فعلاً."

"أبداً والله."

"لماذا إذن تركتني وقمت إلى النافذة؟"

"كنت أريد أن أدخل مزيداً من الهواء إلى الغرفة، لكن وجدت الجو محملاً بالتراب. الحقيقة أنه لا يوجد ما يستحق الحكي. كان اللقاء فاتراً سألتني فيه إن كنت لا أزال ألتقي بك، ثم تركتني وانصرفت من المطار."

قالت:

"أنت تحاول دائماً ألا تقول شيئاً ضدها."

"صحيح. مع ذلك كان اللقاء عادياً فما الذي يجعلك مشغولة البال به؟"

قالت:

"لست مشغولة بشيء"، وظلت تحملق في خشب الأرضية كأنها اكتشفت فيه عيباً.

قلت:

"لا.. يجب أن تصارحيني. لا أحب أن يكون هناك ما يُشغل بالك."

قالت بلهجة فيها حدة:

"لا يوجد شيء في هذا اللقاء يُشغلني، فلماذا تُصر؟"

سقطت دمعة وحيدة على خدها، مسحتها بيدها سريعاً.

قلت:

"لماذا تبكين إذن؟"

قالت:

"أنا هكذا، أبكي أحياناً دون سبب."

قلت:

"تبكين دون سبب؟!"

قالت:

"أرجوك اتركني لحالي"، ومسحت دموعاً آخرى سالت من عينيها.

قلت:

"طالماً أنك تُصرين على عدم مصارحتي بما يُشغل بالك، سأقول لك السبب. أنت تخشين على علاقتنا بعد عودة نوران، ومن تأثيرها عليَّ. تربطني بنوران صداقة، وسنين من العمر عشناها سوياً. وأنا أريد إن أمكن ألا تنتهي هذه الصداقة. لقد سببت لها ألماً شديداً، ويجب أن أكون على استعداد لإنقاذ ما يُمكن إنقاذه من سنين العمر هذه، أن أقف إلى جوارها إذا احتاجت إليَّ، لكني أشك أنها ستقبل مني ما أنا على استعداد لتقديمه. جرحت كبرياءها، وكبرياؤها كبير. لن تغفر لي.

ستراكم الأسباب التي تجعلني في نظرها شخصاً حقـيراً. أنـا مُـدرك ذلـك لكن لابد أن أحاول."

قالت:

"ارقد إلى جواري"، فرقدت واضـعاً ذراعـي حولهـا، لكـن في خيـالي ظـل يـتراءى لي ظهـر نـوران المنحنـي، وهـى تـدفع أمامهـا العربـة المثقلـة بالحقائب، والصناديق.

الفصل التاسع

الصـــــورة

ثقل السنين يزحف عليَّ. وبالتدريج جسمي يفلـت منـي. آمـره فـلا يُطيع. تدور الدنيا من حولي وأنا سائر في الطريق، أو واقف أبحـث عـن عنوان في المكتبة، أو أمام الحوض أقوم بغسل الأطباق، بل يحـدث هـذا أحياناً عندما يتملكني الحماس لرأي من الآراء فأنبري للذود عنـه. فجـأة يدق قلبـي بعنـف، أو تصـعد الـدماء إلى رأسي وتكتسحه مثـل الموجـة العالية في بحر ساكن يعود إلى سكونه. ضربات قلبـي تُبطـيء أو تُسرع، أو تقفز، أو تتوقف لحظة، قبل أن تسـتأنف إيقاعهـا العـادي. في بعـض اللحظات أشعر بالأرض تموج من تحت قـدميَّ وأفقـد الـوعي، أو أشـعر بأضواء تُبرق في مكان ما داخل جمجمة الرأس.

تعـودتُّ عـلى هـذه الظـواهر، وعـلى أسـلوب للتعامـل معهـا، عـلى الانتظار حتى تمر قبل أن أستأنف ما كنت أفعله. في أحـد الأيـام ونحـن نتريض فُوجئت بجسمي يهبط على المهـل ليرقـد عـلى الأسـفلت، بظـلام أسود ينقض عليَّ. عندما فتحـت عينـيَّ رأيـت السـماء الزرقـاء، وشـجرة

تُرفرف أوراقها الخضراء تُطلان عليَّ. استهواني المنظر، والرقاد حيث أنا دون حركة. أحسست بالراحة، بأنني أريد أن أظل هكذا، تاركاً الوقت يمر كأنني عدت من الموت، وأستمتع الآن بالحياة، بتأمل ما آراه، إلى أن مال عليَّ رجل خشن الوجه، ثم شعرت بيد أمنية على كتفي، بذراع الرجل أدخلها تحت جسمي وهو يُحاول رفعي عن الأرض، فقلت:

"اتركاني حتى أقوم وحدي. أنا أعرف ما الذي يجب أن أفعله."

انقلبت واسندت كفيَّ وركبتي على الأرض، ثم رفعت جسمي بالتدريج إلى أن وقفت. قلت للرجل: "شكراً يا عمي"، واستأنفت السير مصحوباً بدعواته بالصحة، وبطول العمر.

أصبحت كل حركة أقوم بها تتطلب جهداً مضاعفاً، وتُسبب لي آلاماً في الساقين، أو في الظهر. أن أقوم من السرير في الصباح، أو من جلستي على المكتب، أن أميل لألتقط شيئاً وقع مني على الأرض، أن أرتدي جرابي، أو حذائي، أو بنطالي، أو أُحكم غلق أزرار القميص فترتعش أصابعي، لكني ظللت مُصراً على مواصلة كل ما أستطيع أن أفعله، حتى وإن كان يحتاج إلى جهد مضني، مثل تنظيف الشقة عندما تُسافر أمنية لحضور مهرجان أو للقيام بتصوير إحدى أفلامها. صوت كان يهمس لي ويقول إن أقصر طريق إلى الموت هو التوقف عن الفعل.

اقترب عيد الأضحى. كدت أن أُصبح نباتياً لكن في عيد الأضحى لا أقاوم أكل اللحم. أتذكر جدتي كانت تُطعمني لحم الضأن مشوياً في الفرن البلدي المقام في الحوش الخلفي للبيت. قلت لأمنية:

"هل أنت على استعداد لمصاحبتي غداً إلى محل للجزارة في حي إمبابة. تعودت أن أبتاع منه اللحم عندما كنت أعيش في هذا الحي. لي فيه علاقات أحرص عليها. إنه حي موحٍ إليَّ. يُمكن أن أطلب من صاحب المحل أن يحجز لنا كبدة مع اللحم."

كانت تقرأ في كتاب. رفعت رأسها ونظرت إليَّ، ثم عـادت إلى القـراءة كأنها لم تسمع شيئاً مما قلته، لكن بعد قليل التفتت إليَّ وقالت:

"كبدة؟.. طبعاً سأصاحبك."

في اليوم التالي ركبنا في سيارة للأجرة وجدناها سـائرة قـرب البيـت. كانت من طراز فيات ١٢٦، قديمة يصدر عـن هيكلهـا صـوت خشخشـة أثناء السير، كأنها في أية لحظة يُمكن أن يسقط جزء منهـا. كـان المقـبض الذي يرفع ويُخفض زجاج النافذة مخلوعاً، فظل الريح المحمل بـالتراب، والدخان ينـدفع منهـا، وكـان السـائق يُسرع بهـا محـاولاً اخـتراق زحـام المرور، ثم يضغط على الفرامـل فجـأة، فينغـرس في ظهـري شيء مـدبب اخترق جلد المقعد الذي كنت جالساً عليه لكنني قررت ألا سبيل سـوى أن أتحمل في صمت، نادماً على إصراري شراء اللحم من إمبابـة بالـذات، بينما كان في إمكاننا شراؤه من أي محل للجزارة قريب منـا. عـبرت عـن ضيقي فقالت لي أمنية ونحن سائرين:

"لابد أن تدفع ثمن استعادة ذكرياتك عن إمبابة، وأن تعيش الحياة كما يعيشـها النـاس. البـديل هـو أن تبقـى في البيـت مرتـدياً سروالاً طـويلاً، وروب دي شامبر أحمر اللون، وخفاً مبطناً لتتابع سريانها وأنـت جـالس إلى جوار النافذة المطلة على الشارع."

قلت:

"لا، كان يُمكن أن نتريث، ونبحث عن سيارة للأجرة مريحة."

قالت:

"سيارة الأجرة هذه جزء من المعاناة التي يحياها سـائق سـيارة للأجـرة فقير."

هبطنا قرب محل الجزارة بعد أن توقف المرور في الشارع المـُفضي إليـه. اخترقنا زحام السيارات، وعربات التوك توك، والدراجات البخاريـة، وعـروض

البائعين المنصوبة في الطريق، وجماعات الناس الذين هبطوا من بيوتهم للقيام بمشتريات العيد. عند إحدى النواصي كادت أن تصطدم بي إحدى سيارات الميكروباص، فانتزعت ذراعي منها، وقفزت بسرعة إلى الرصيف، ثم انتظرت حتى تلحق بي، فأحسست بشعور من الرضا، بنوع من الثقة في قدرتي على السير في المدينة، على الخوض في هذا الحي يتصاعد منه ضجيج الأبواق، والأغاني، وهدير السيارات، والدراجات البخارية، وميكروفونات الجوامع تتلو المواعظ عن الحج لبيت الله الحرام، عن العقاب الذي سيناله الكافرون من الرب. أحسست أن جسمي ما زال فيه بقايا عنفوان الشباب، فقد ولى لكنه ترك لي بعض من قدراته. في لحظة من اللحظات نظرت إليَّ أمنية وقالت:

"يبدو عليك الانشراح. أطوارك غريبة."

قلت:

"هذا هو حيَّ القديم، عشت فيه سنين الاكتشاف، وهذه هي المدينة التي حلمت بها وأنا ما زلت صبياً، أسمع عنها من طلبة الجامعة العائدين إلى القرية في أجازات الصيف."

وصلنا إلى محل الجزارة أُقيم حوله شادر كبير تدلت فيه الذبائح المختومة بلون أحمر، فترددت كلمات الترحاب:

"أهلاً وسهلاً. كل سنة وأنتم طيبين. من زمان ما شوفنكش. نورتونا. اتفضلوا. هات كرسيين يا محمد. يا بني من 'القهوة."

بعد قليل جاء إلينا شاب يحمل مقعدين. لمحت في مشيته، وفي نظرة عينيه اعتداد بالنفس. سألنا عن طلباتنا، فهمست إليَّ أمنية: "لا تنس الكبدة"، فقلت له:

"لو سمحت يا محمد اتنين كيلو ضاني، مفيهمش دهن كتير، وتقطعهم كباب، وكيلو كندوز مفروم للكفتة، وكيلو ونص كبدة بتلو."

اقترب من الذبائح وصار يقطع منها كتلاً من اللحم حملها إلى الطبلية. ثم همس في أذن صاحب المحل فرد عليه قائلاً:

"حاضر يا أستاذ عزت من عنينا، بس يمكن تطلع اتنين كيلو إلا ربع."

قامت أمنية لتلتقط بعض الصور بالكاميرا الديجتيال الصغيرة التي كانت تحملها، وجلست أنا أتتبع ما يدور، في حركة البيع والشراء، وتقطيع اللحم وتوضيبه، في النقود تخرج من جيوب الجلابيب، أو من حافظة نقود، أو من كيس أُغلقت سرته بقطعة من الدوبارة، أو من حقيبة امرأة تنتظر دورها في سكون. لمحتها وهى تسقط تباعاً في الدرج، أو تُدس أوراق منها في كف يد بحركة نصف مستترة كأنها عورة تُوجب الستر المعلن قبل أن تستقر في جيب بنطال من قماش الجينز، أو جلباب أبيض ملطخ بالدم.

لم نكن من الأثرياء، ولم نكن نبتاع كميات اللحم التي يقوم بشرائها تجار، وأغنياء الحي، لكن كنت أنا من أبنائه، ونحن زبائن من نوع خاص نرفع من الوضع الأدبي للمحل، من المثقفين الذين يتحركون في دوائر الفن، يرفع وجودنا من مقام الأخوين مالكا المحل.

الأخ الأصغر مرتفع القوام، مربع الكتفين، صاحب لحية سوداء كثيفة تهبط حتى صدره، ويبدو عليه أنه كان يُمارس الرياضة قبل أن يكتسي جسمه بالشحم، ويتكون له كرش. أما الآخ الأكبر فصغير الحجم ودينامو المحل رغم العرجة الواضحة في مشيته نتيجة إصابته بشلل الأطفال في إحدى ساقيه. ورثا مهنة الجزارة من أبيهما الذي هاجر من الواحات البحرية وهو شاب، واستقر في سوق السلاح قبل أن ينتقل إلى حي إمبابة ليُؤسس شادراً صغيراً يبيع فيه اللحم.

ظللت جالساً دون حركة مستغرقاً فيما آراه، في أيدي العاملين تُمسك بالسكين، تعرف أين تغرسه لتفصل اللحم عن العظم، كيف تشق

به الخط الأبيض لتعزل بين فصوصه، كيف تنزع الشغت والجلد لتصنع بعدها قطعاً متساوية الحجم للشواء، أو شرائح معدة للقلي. أعشق متابعة الجزارين، والنجارين، والبنائين، وصُناع الفخار، وآلات العزف وهم يُمارسون مهنتهم. عندما أراهم يقومون بأعمالهم أشعر بأن في تكويني عجز، فأنا قاصر في استخدام يدي لصنع أي شيء، أو إصلاحه، فقبل أن يظهر الإنسان على الأرض انتصب أسلافه ليقفوا على قدمين، وهكذا أصبحت أيديهم حرة، لتجس، وتتلمس، وتكتشف، وتختبر وتصنع ما لم يكن موجوداً من قبل. هكذا نشأ التعامل بين اليد والعقل، بين الفعل والفكر، بين التنفيذ الملموس والخيال الذي يسبقه، فتطور الإنسان من شبيه للقرد قريب منه إلى كائن يغزو الفضاء، ويسعى لاكتشاف الكون، كائن صنع العقل الإلكتروني، وجعل العالم جزءًا من حياتنا، كائن يكتب قصص الحب، والحياة، والموت.

ونحن عائدين في سيارة الأجرة سألتني:

"ماذا فعلت وأنا ألتقط الصور؟ ألم تمل من جلستك في المحل؟"

قلت:

"لا.. سرحت."

سألتني:

"فيما؟"

قلت

"فيكِ."

نظرت إليّ وفي عينيها شك. قالت:

"فعلاً؟"

قلت:

"لبعض الوقت، أما بعد ذلك فانتقلت إلى خواطر ربما سأكتب عنها."

عندما صعدنا إلى الشقة قالت:

"سأقوم بإعداد جزء من الكبدة للغد. هل تريد أن تتناول شيئاً قبل أن أبدأ في تتبيله؟"

قلت:

"ربما كوب من الشاي."

جلست على الكنبة لأستريح. أخرجتُ حافظة النقود لأحصي ما تبقي فيها بعد أن دفعت ثمن اللحم، فسقطت منها صورة لنوران ترتدي فيها القميص الأزرق الذي كانت ترتديه يوم أن ذهبت إلى مكتبها. التقطت الصورة من على الأرض وأعدتها إلى مكانها حيث تعودت أن أحملها.



الفصل العاشر

أشـــبـــــاح

انتهت أمنية من تصوير الفيلم، وقررتْ أن تستريحَ قبل أن تتفق على موعد للقيام بالمونتاج. قالت:

"سأذهب لزيارة إحدى صديقاتي كانت تعيش معي في سكن الطالبات"، وشرعت في ارتداء الملابس التي أخرجتها من الدولاب، لكن وهي واقفة أمام المرآة قالت فجأة: "لا.. لن أخرج. لم أستقر على الموسيقى. سجلت بعض المقطوعات القصيرة التي فيها بيانو وعود. أريد أن أستمع إليها مرة آخرى لأختار منها. هل يُمكن أن تشاركني الاستماع حتى تُبدي رأيك فيها؟" قلت:

"ليس عندي مانع، لكن رأيي لن يُفيد طالما أنني لم أر الفيلم."

قالت :

"مستحيل. لن أعرضه عليك إلا عندما أنتهي منه. إن عرضت عليك شيئاً منه الآن سأظل أتساءل تُرى ما رأي عزت فيما صنعته؟"

"إذن سـأذهب إلى السـوق. لم تعـد عنـدنا خضروات، أو فاكهـة، أو أي شيء تقريباً."

قالت:

"تسليتك المفضلة. هل تريد أن تمارسها وحدك، أم تفضل أن آتي معـك؟ لا داعي لأن تعود حاملاً أكياس ثقيلة. أفضل أن نبتاع كل ما نحتاج إليه بدلاً من أن نذهب إلى السوق عدة مرات."

عندما وصلنا محـل الـخضروات وقفـت قلـيلاً في الخـارج لأستنشـق الهواء، وأقوم بتنقيـة حـزم مـن البصـل الأخضر، والشـبت، والبقـدونس، والجرجير والكسبرة الخضراء. كانـت تُوجـد شـبورة هبطـت مـع الظـلام، وفي إحدى اللحظات، وأنا أستقيم لأضع الحزم التـي اخترتهـا في الكـيس، بدا لي فجأة كأن نوران تقف على مسافة مني، وتنظر إليَّ قبل أن تتراجع وتختفي في غيام الشبورة. أحسست بقلبي يقفز، ثم يدق دقات سريعة. أسندت رأسي على عمود للنور، ثم ملت بـه إلى أسـفل كـما تعـودت أن أفعل، وسرعان ما هدأ، فواصلت مع أمنية عملية الشراء، ثم توجهنـا إلى محل للبقالة قريب لنبتاع علبـاً مـن الزبـادي، واللـبن، وفـولاً للتـدميس، وخبزاً أسمرًا مقسمًا إلى شرائح لوجبات الإفطار.

في تلك الليلة، وأنـا نـائم جـاءني كـابوس. رأيـت نـوران جالسـة عـلى الأرض في غرفة مزدحمة بأجهزة لها شاشات تخـرج منهـا أسـلاك لتلتـف حول الجزء الأسفل من ساقيها. في الغرفة كانت توجد امرأة ترتدي سترة كاكية اللون ملامحها مغطاة بطبقـة كثيفـة مـن المسـاحيق. كـان يـدور بينهما حوار متقطع فهمت منه أن نـوران ترغـب في الخـروج مـن هـذا المكان، لكن المرأة استولت عـلى جـواز السـفر الخـاص بهـا، وتـرفض أن تُعيده إليها. تتحدث إليها بعنف، وتدق على المنضدة التي تجلـس إليهـا بقبضتها فتقفز زجاجة المياه المعدنية، وُضعت عليها ومعها كـوب مـليء

بسائل أحمر اللون يُشبه الدم. أما نوران فتظل ساكنة كأنها عـاجزة عـن الحركة، عاجزة عن التخلص من أسلاك الأجهزة الملفوفة حول رسغيها.

في الصباح سألتني أمنية:

"هل سمعت عن الحوار التليفزيوني الذي أجرته نوران مـع قنـاة المنـبر الحر؟"

قلت

"لا..لكن لماذا تسأليني عنه؟ إنها تُجري حوارات كثيرة."

قالت:

"لأنها تناولتك فيه، وتناولتني أنا أيضاً."

قلت:

"ليس هذا بجديد."

قالت:

"تريد أن تدمرني، أن تصورني كامرأة ساقطة. أنت رجل، المجتمع يغفـر لك، أما أنا..."

شعرت بشيء مثل قبضة اليد تصعد إلى حنجـرتي. تمالكـت ووضـعت ذراعي حول كتفيها، وبالتدريج خف التوتر البادي عليها، فقلت:

"يجب أن نخرج من هذا، أن ننشغل بشيء."

قالت:

"لست في حالة أستطيع معها أن أفعل شيئاً."

قلت:

"ما رأيك في أن نُشاهد فيلماً من الأفلام."

فكرتْ قليلاً ثم قالت:

"فلنحاول. عندي فيلم اسمه بلو."

قامت وأخرجت ديسكاً من الرفوف المعلقة أعلى سريرنا، ثم صارت تقرأ ما هو مكتوب عليه، لكنها توقفت عند اسم المخرج، فتناولته منها. قلت:

"اسمه كريزيزتوف كيسلوفسكي. إنه بولندي عاش في باريس، وأخرج من بين ما أخرج ثلاثة أفلام اسمها ريد، ثم وايت، ثم بلو. هذا هو الترتيب في الثلاثية على ما أظن. أفضلها في رأيي هو بلو، فقد شاهدت الثلاثة. قامت بالدور الرئيسي في بلو الممثلة جولييت بينوش."

قالت:

"اخترت هذا الفيلم لنسري عن نفسينا لكن أيضاً لأنني أريد أن أكتب مقالاً أحلل فيه الدور الذي لعبه وجه جولييت بينوش في الفيلم، كجزء من سلسلة اسمها: الوجه فن مُوغل في العمق. الفيلم ناطق بالفرنسية، والترجمة بالإنجليزية فيُمكن أن تساعدني في التقاط معنى بعض الكلمات."

جلسنا أمام شاشة الكومبيوتر، وأدخلت فيه الديسك. كان الفيلم يدور حول حياة امرأة وقع لها حادث خطير، فأثناء سفرها مع زوجها، وابنتها الصغيرة، انحرفت السيارة التي كان يقودها الزوج عن الطريق، وانقلبت عدة مرات قبل أن تصطدم بشجرة. يموت الزوج هو وابنتهما الصغيرة، وتُنقل هى من مكان الحادث إلى المستشفى فاقدة الوعي، بعد أن شاهد صبي كان يمر في المكان ما جرى، فأبلغ عنه. عندما تتحسن حالتها يُخبرونها بوفاة زوجها وابنتها فتُصاب بصدمة شديدة لكن بمرور الأيام تتغلب على الحالة السيئة التي كانت تُعاني منها وتسعى إلى نسيان كل ما يتعلق بزوجها الموسيقار المشهور، وبابنتها الوحيدة، إلى قطع الصلة تماماً بما كان يربط بينها وبين حياتها السابقة.

لكن أثناء انتقالها من مكان إلى مكان للتخلص من الممتلكات التي كانت شريكة فيها مع زوجها تكتشف أنه كان على علاقة بامرأة آخرى عشقها، وأصبحت حاملاً منه، فتُصاب بطعنة جديدة مؤلمة للغاية. مع ذلك خطوة بعد خطوة تشعر أنه لابد أن تنتزع نفسها من الحزن، والألم المستوليين عليها، فتعود بالتدريج إلى التأليف الموسيقي الذي كانت تتعاون فيه مع زوجها، إلى إتمام العمل الذي كان يقوم به لإنجاز سيمفونية تعاقد على تقديمها في الاحتفال بعيد تأسيس الاتحاد الأوروبي ثم تُقيم علاقة حب مع الموسيقار صديق زوجها الراحل الذي ظل يكنّ لها عاطفة عميقة، وقوية، دون أن يفصح لها عن مشاعره. هذه العودة إلى التصالح مع الحياة تقودها إلى التبرع بالمنزل الذي آل إليها بعد وفاة زوجها للمرأة الشابة التي كانت عشيقته، وحملت منه، حتى يُولد فيه طفلهما.

بعد الفيلم هبطنا من الشقة لنتريض. أحسست أن حركة الجسم والسير في الهواء الطلق ستخفف من وطأة الشحنات التي عشتها في هذا اليوم. سألتها ونحن سائرين:

"ما رأيك يا أمنية: هل الخيانة فيما ارتبكه زوجها كان في إقامته علاقة مع المرأة الشابة، أم في إخفائه هذه العلاقة عنها؟"

نظرت إليّ في صمت كأنها أدركت ما يدور في ذهني. ثم سبقتني في السير على الطريق الصاعد فوق تل. توقفت وفتحت ذراعيها لتستنشق الهواء بعمق وهى تتأمل الشمس تسقط كَكُرة حمراء خلف مساحات الرمل. رفعت جسمها على أصابع قدميها، وكررت الحركة نفسها عدة مرات. قالت:

"افعل مثلي. هكذا علمتني مُدرسة اليوجا. إنها حركة تقوي الساقين والظهر."

حاولت أن أفعل مثلها، لكن في كل مـرة كـان جسـمي يهـبط ثقـيلاً على القدمين، فانفجرت في الضحك. قلت لنفسي الطفلة فيها أقـوى مـن كل شيء. التقطت زلطة ناعمة من الأرض وملت إلى الخلف ماداً ذراعي إلى أقصى حد ممكن وألقيت بها كأنني أُرجم شبح السنين التـي ضـيعت مني براءة الطفل.

الفصل الحادي عشر

قرنفل بلدي

كان قد مر أسبوعان على اللقاء الذي تـم بينـي وبـين نـوران منصـور عندما أبلغتني شقيقتي زينة أنها اتصلت بها، واقترحـت عليهـا أن أقـوم بزيارتها مرة آخرى لنتداول في المسألة التي عرضتها عليها.

أتذكر هذا اليوم جيداً. في الساعة الواحـدة إلا ربـع يـوم ٢١ نـوفمبر سنة ١٩٧٩ تسللت وسط الزحام من بوابة جامعة عين شمس متجهاً إلى قسم التاريخ في كلية الآداب بعد أن عرضت بطاقتي على الحارس الـذي اعترض صارخاً "رايح فين؟" كانت احتياطات الأمن مشددة في هذا اليـوم وكان التليفزيون مستمر في إذاعة صورة أنـور السـادات وهـو يقـف في الكنيسـت الإسرائـيلي إلى جـوار منـاحم بيجـين، وقـد رفعـا يـديهما المتشابكتين في الهواء. داخل حوش الجامعـة تجمـع المئـات مـن الطلبـة والطالبات وهم يتناقشون بأصوات تكـاد تكـون هامسـة، كـأن الحـدث الجلل، والمفاجيء يُحلق فوق رؤوسهم.

صعدت إلى الدور الثاني حيث كان يُوجد قسم التاريخ، وتوقفت أمام بابها. نقرت عليه لكني لم أسمع شيئاً، ففتحته وأطللت منه برأسي. كانت جالسة على مكتبها مرتدية قميصاً أزرق، وحول رأسها هالة شعرها الكستنائي يُبرق في ضوء النافذة المفتوحة وراءها. كانت ملامحها مختبئة في الظل الذي صنعه انكبابها على الأوراق الموضوعة أمامها. عندما أحست بدخولي رفعت رأسها، فلمحت دائرتين من الكحل تُحيطان بعينيها الواسعتين. قلت:

"صباح الخير يا أستاذة. أنا عزت المرشدي، شقيق زينب المرشدي."

قالت:

"صباح الخير. طبعاً أنا متذكراك، أهلاً وسهلاً"، وقامت من جلستها، ثم أشارت إلى كنبة جلدية موضوعة قرب الجدار، وانتظرت حتى جلست عليها لتأخذ مكانها عند الطرف الآخر ثم قالت دون مقدمات:

"أستاذ عزت، لا أريد أن ألف وأدور حول ما تم في موضوعك. التقيت بوزير الثقافة في الأسبوع الماضي، فرفض أن يتدخل فيه بأي شكل من الأشكال، بل قال لي في سياق الكلام: "لماذا أنت مهتمة بهذا الولد. أليس هو من قامت المخابرات بمصادرة فيلمه عن تداعيات حرب يونيو سنة ١٩٦٧؟" لم أكن أعرف هذه الحقيقة، وبالمناسبة هي لا تغير شيئاً في موقفي منك، لكني غضبت من الأسلوب الذي تحدث به إليَّ فانصرفت دون أن أرد عليه. الآن أرى ألا جدوى من هذه المساعي، لكن لا تيأس. يُمكن أن نبحث عن حلول آخرى." ثم حملقت في وجهي وقالت: "يبدو أنك فقدت وزناً كثيراً منذ أن رأيتك في المرة الأولى، ما الذي جرى؟"

تمالكتُ حتى لا يبدو عليَّ الإحباط الذي شعرت به وقلت:

"إنها مجرد وعكة أصابتني من أكل الطواجن الدسمة في بلدتي. قضيت فيها عدة أيام، وأنت لابد تعرفين كرم أهل القرية عندما يستقبلون أحداً من أقاربهم غاب عنهم فترة طويلة."

لم يبد عليها الاقتناع. نظرتْ إليّ ساعتها وقالت إنها بعد لقائي معها ستتوجه إلى مطعم قريب في العباسية لتتناول وجبة خفيفة حيث أنها ستبقى في الكلية إلى وقت متأخر، واقترحت عليّ أن أصطحبها إليه. حاولت الاعتذار لكنها أصرت. قالت:

"يُمكن أن نُكمل حديثنا أثناء الأكل."

أحسست بحرج شديد فالنقود التي كانت معي في هذا اليوم لم تكن لتكفي حتى أدفع حساب ما قد نتناوله من طعام، لكنها لم تتح لي فرصة للانصراف، قالت أنها لن تذهب إلا معي فأحسست أنه من السخف أن أمتنع عن قبول دعوتها، فقد يبدو لها أنه بعد أن قالت ما قالته عن لقائها بالوزير، والموقف الذي اتخذه مني، أنني لم أعد مهتماً بالبقاء معها لذلك وافقت على مصاحبتها.

عندما ذهبنا إلى المطعم حرصت ألا أتناول في الغداء سوى حساء العدس ودفعت حسابي منفرداً. ساعة انصرافي قالت:

"شقيقتك زينة ساعدتني في وقت كانت ظروفي فيها صعبة للغاية، وهذا شيء لا يمكن أن أنساه. أرجو أن تبقى على اتصال بي فقد يجدّ جديد."

مرّ شهر أو أكثر، وفي صباح أحد الأيام، وأنا راقد تحت الأغطية في محاولة لمقاومة البرد، رنّ جرس التليفون. رفعت السماعة فجاء لي صوت امرأة. أصابني شيء من الدهشة فمَنْ تكون هذه التي تتصل بي وأنا أعيش حياة منعزلة تماماً. أكتب كلما استطعت قصة قصيرة لا تُنشر

في كثير مـن الأحيـان، واعتمـد أساسـاً عـلى نصـيبي في إيجـار الفـدادين الخمس التي تركها لنا أبي بعد وفاته. سمعتها تقول:

"أنا نوران منصور يا أستاذ عزت، مساء الخير. هل يُمكن أن تمـر عـليَّ في المكتب غداً الساعة العاشرة صباحاً. هناك مسألة أُريد أن أتحـدث فيهـا معك."

قلت:

"أستاذة نوران. أشـكرك عـلى هـذا الاتصـال، يُمكـن طبعـاً أن أحضر إلى مكتبك في الموعد."

قالت:

"حسناً، إلى اللقاء إذن." ثم أغلقت الخط.

عندما ذهبت إليها في اليوم التالي أخبرتني أنها قامت بتأليف كتـاب عن تأثير عرب الأندلس في الثقافـة الأسـبانية، ويُريـد أحـد النـاشرين في برشلونة نشرها بالأسبانية، وأنها عرفت من أختي زينة أنني أجيـد هـذه اللغـة. سـألتني إن كنـت عـلى اسـتعداد لترجمـة الكتـاب مقابـل أجـر، وأعطتني نسخة منها.

بعد أن قرأته وافقت عـلى القيـام بترجمتـه، فطلبـت منـي أن أقـوم بترجمة عشرين صفحة منه كنموذج ستقوم بإرسـاله إلى النـاشر قبـل أن يُوقع معي العقد. انتهيت من الترجمة بعد ثلاثة أشهر. مرت خمسـة أو ستة أسابيع لا أذكر بعد أن قامت بإرسال الترجمة كاملـة إلى النـاشر ثـم وصلني شيك بالبسيتة الأسبانية يُعـادل مبلغـه سـبعة وثلاثـين ألفـاً مـن الجنيهات المصرية.

أثناء الشهور الثلاث التي استغرقتها الترجمة كنت ألتقـي بهـا لأسـألها عن بعـض المصـطلحات في الكتـاب، وعـن أشـياء آخـرى فيـه، فتوثقـت

العلاقة بيننا، وتحولت إلى صداقة قوية، ثم جاء اليوم الذي اتفقنا فيه على الزواج. سافرنا إلى الواحات البحرية، وهناك قام شيخ الجامع بعقد قراننا في حضور اثنين من الشهود تكفل بإحضارهما لنا. كان أحدهما يملك منزلاً أقامه في مزرعته لليوم الذي سيتزوج فيه ابنه البكر، فعرض علينا أن نقيم فيه لمدة أسبوعين مقابل أجر. كنا ننام على مصاطب مغطاة بأكلمة من الصوف، ونستمع إلى صوت النخيل يرفرف في الريح، وخرير المياه يسيل في قنوات الري، ونأكل جالسين على طبلية، لحماً طعمه حلو لأن البقر هناك يتغذى على التمر. عدنا بعد انتهاء الأسبوعين، وأقمت معها في شقتها، وبعد سنة انتهيت من كتابة روايتي الأولى "قرنفل بلدي".



الفصل الثاني عشر

وفي الأصل كانت التماسيح

"أريد أن أزور السد العالي." هكذا قالت لي أمنية وهي راقدة إلى جواري في ذلك الصباح، ثم قفزت من فوقي لتخرج من السرير. فتحت الشيش، وتطلعت من النافذة، ثم أضافت: "وأن أرى البحيرة التي تكونت وراءها. لم أذهب إلى أسوان أبداً." قلت:

"وما المانع، لكن لماذا جاءتك هذه الفكرة فجأة؟"

ألقت إليّ بنظرة مشاكسة وضحكت، ثم انشغلت بالبحث في حقيبتها تُحشد فيها أشياءً كثيرة وتنساها. سألتها:

"عما تبحثين؟"

قالت:

"أبحث عن مفاتيح الشقة."

قلت:

"تركتيها في الباب عندما عدنا بالأمس."

بعد يومين سافرت مع عدد من أصدقائها. في ليلة السفر كان البرد قارساً فرقدنا تحت الأغطية مستمتعين بالدفء والحديث. مر الوقت دون أن نشعر به، لكن في لحظة من اللحظات تنبهت إلى أن الساعة التي يجب أن تُغادر فيها البيت لتلحق بموعد الطائرة كاد أن يفوتها، فقامت بسرعة من السرير، ثم في لمح البصر ارتدت ملابسها، واندفعت إلى باب الشقة، حاملة أدوات التصوير، وأنا من ورائها أجر الحقيبة التي وضعت فيها ما يُمكن أن تحتاج إليه من ملابس.

بعد أن سافرت استغرقتُ في الكتابة، لكن في إحدى الليالي بعد أن أنهيت أحد الفصول فتحت التليفزيون لأشاهد الأخبار، ففوجئت بها تقول إن إسرائيل أطلقت حملة عسكرية مسلحة على قطاع غزة. توالت أمامي صور الجرحى، والقتلى رقدت جثثهم في الشوارع أو تحت أنقاض البيوت، والحرائق التي أشعلها القذف المستمر بالقنابل والصواريخ. شاهدت الهلع في عيون الشباب وهم يحملون الضحايا على النقالات، أو فوق الكتفين. استمعت إلى تقارير تقول إن الغارات التي قامت بها الطائرات الإسرائيلية أصابت ما يقرب من ألف هدف، وأنه سقط مائتان وأربعون من القتلى، وثلاثمائة وواحد وخمسون من الجرحى، الكثيرون منهم نساء وأطفال.

أعدت الوجبة التي أعددتها لنفسي إلى المطبخ. وارتديت حذاءً من المطاط، وكنزة. أغلقت التليفزيون، وهبطت من الشقة لتحملني سيارة للأجرة إلى المظاهرة التي كانت ستتجمع أمام نقابة الصحفيين. لكنني انصرفت بعد قليل فقد أحسست بقلبي يدق بقوة، وينفلت في ضربات سريعة غير منتظمة كأنه في سباق، فعدت في سيارة أخرى للأجرة إلى البيت. رقدت في السرير وحاولت أن أنام دون جدوى، وقرب منتصف الليل تنبهت إلى وجود النور في الصالة فناديت:

"وصلتِ يا أمنية؟ الحمد لله على السلامة."

أضأت مصباحاً في الغرفة، فدخلت عليَّ مرتدية قبعةَ صغيرة من الخوص، زرقاء اللون. تأملتها وقلت:

"شكلك ظريف في القبعة."

خلعتها ووضعتها على رأسي. قلت

"لن يُعجبك شكلي في القبعة. أنا لا أليق في أغطية الرأس، لا الطرابيش، ولا القبعات، ولا الطواقي. رأسي مسطحة من الخلف مثل تجار الشام، وربما يكون هذا هو السبب."

مالت على جانب وفحصتني، ثم قالت: "فعلاً". مدت يدها بسرعة وخلعت القبعة من على رأسي وارتدتها من جديد. قالت:

"ألا تريد أن ترى الأشياء التي ابتعتها من أسوان؟"، ودون أن تنتظر أسرعت بالخروج من الغرفة، ثم عادت حاملة كيساً كبيراً من البلاستيك، أخذت تخرج منه أكياساً أصغر حجماً وهى تُعدد:

"هذا بلح أسوانلي، وهذا بلح الشبح، وهذا بلح نسيت اسمه، وهذا كركديه، فأسوان مشهورة بجودته، وهذا لُب أبيض لي أنا، فأنت لا تقزقز اللب، وهذه بامية جافة أكدوا أنها في الطهي مثل الخضراء." توقفت عن الكلام لحظة وبدا عليها التردد قبل أن تُكمل ما كانت تقوله، ثم أخرجت كيساً كانت فيه علبة مغلقة، ونظرت إليَّ في توجس قبل أن تُضيف: "وهذه ملوحة، وضعتها في علبة محكمة حتى لا تتسرب رائحتها منها. كل هذه الأشياء أرخص ثمناً عنها في القاهرة."

قلت:

"سأتدرب على قزقزة اللب، أما الملوحة ربما جربت قطعة منها. لا أحب رائحتها لكن من يعلم ربما أعجبتني."

قبلتني وقالت:

"سأضع حبات من البلح في اللبن حتى تتناولها مع إفطارك."

خلعت القبعة، وهزت رأسها لتفك خصلات شعرها المتشابكة، ثم سألتني:

"هل أوحشتك؟" ثم واصلت: "أوحشتني أنت جداً. تخيلتُك تقف إلى جواري على السد العالي، والمياه تتدفق من التوربينات من تحتنا. هل زرت معبد فييلا؟"

"لا.. زرت السد العالي، لكن لم أقم بزيارة المعبد. ربما في رحلة آخرى نستطيع أن نذهب سوياً."

قالت:

"معبد فييلا شيء مدهش. في واجهته توجد تلك التماثيل الرائعة التي ظلت تُطل من أعلى على النيل منذ آلاف السنين. مياه النيل هناك زرقاء اللون، صافية. لابد أن نذهب سوياً."

قلت:

"سيحدث، لكن احكِ لي عن بقية الرحلة. ألم تذهبي إلى البحيرة؟"

بدا على وجهها الآسى، سرعان ما تبدد. قالت:

"في اليوم المحدد لزيارة البحيرة ركبنا في زورق بخاري لنتجه إلى المكان الذي تُوجد فيه التماسيح. عندما فكرت في الرحلة كان أملي أن أرى التماسيح، وأن أصورها في بيئتها، بل ربما كان هذا هو هدفي الأول منها. المكان الذي تُوجد فيه هى جزيرة من الجزر الصخرية الموجودة في وسط البحيرة على مسافة من السد، لكن أثناء السير اكتشف صاحب الزورق أنه يُوجد ثقب في القاع، فاضطررنا إلى العودة من حيث جئنا. فيما بعد شاهدت تمساحاً قاموا باصطياده ووضعه في حوض كبير محاط

بجدار حتى يستطيع السواح أن يشاهدوه. لم أبتهج لهذا المنظر. كنت أريد أن أراه في بيئته الطبيعية. فارق كبير أن نرى الحيوانات وهي تعيش، وتتحرك في الطبيعة بدلاً من أن نراها محبوسة في مكان محاصر لنتفرج عليها. إنها عملية فيها قسوة. الكائن الحي يجب ألا يُحبس."

قلت:

"جزء من تعاسة الإنسان هو أنه أصبح يعيش في علب من الأسمنت. أتذكر أياماً كنت فيها طفل يجتاز الغيطان ليذهب إلى المدرسة. الهواء والخضرة، والشمس عندما تُشرق وتُغرب، لكن لا عليكِ.. ستأتي لك فرص آخرى لرؤية التماسيح وتصويرها."

سألتني:

"هل سبق لك أن رأيت التماسيح؟"

ضحكت:

"في حديقة الحيوانات طبعاً."

قالت:

"خذني إلى جوارك في السرير لأحكي لك عما عرفته عن حياتها. إنها لأشياء غريبة على التصور. قال لي الصيادون إنها في فصل الشتاء تخرج في الفجر من المياه لترقد على الشاطيء تحت الشمس، ومن يريد أن يشاهدها لابد أن يتواجد قبل ساعة الشروق بفترة في مكان ليس ببعيد عنها، لكن لا تهب منه رياح تسير إلى حيث ترقد. ذلك أنه إذا وصلت إليها رائحة بشر تُسرع بالعودة إلى المياه، وتختفي فوراً.

"لماذا؟ أهي تخشى من البشر؟"

"نعم، إنها تخشانا ربما أكثر مما نخشاها نحن. لا تأمن الإنسان. لذلك إذا اقترب منها تنقض عليه وتفترسه قبل أن يعتدي هو عليها ليسلخ

جلدها فهو يُباع بثمن غال. إنها تتكاثر بسرعة كبيرة، فالأنثى تضع من ثلاثين إلى مائة بيضة في السنة، وبعد أن يتم إخصابها بواسطة الذكر تقوم بدفنها في الرمل، وبحراستها إلى أن تفقس."

"كم من الوقت يمر قبل أن تفقس؟"

"تفقس بعد شهرين، والذكر يتعاون مع الأنثى في حراستها، ويقوم بكسر القشرة الخارجية للبيضة ليسهل على التمساح الوليد خروجه منها."

قلت:

"ظريفة هذه العملية. فيها تعاون بين الجنسين، ليس في التلقيح فقط وإنما في الإنجاب أيضاً. هل تعرفين أنه في لحظة الولادة من المفيد أن يتواجد الزوج مع زوجته ليُشجعها على الطلق وهو ممسك بيدها. هذا يُطمئنها فيقل الألم الذي تُعاني منه."

قالت:

"أصبحت أتمنى أن يكون لنا طفل."

لم أعلق. ظللت صامتاً ثم قلت:

"ربما بالتبني."

قالت:

"لا... أريد أن تكون ابنتي أنا."

ضحكت:

"لا تريدين ولداً يُشبهني؟"

قالت:

"لا... أريدها بنتاً تُشبهني." وسقطت دمعتان من عينيها. ساد بيننا الصمت ثم قالت:

"احتضني يا عزت."

وضعت ذراعي حولها. أطفأت النور، وبعد قليل أخذت أنفاسها تتردد كأنها نامت، فظللت راقداً إلى جوارها في الظلام وعيناي مفتوحتان.

في اليوم التالي تصاعد الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزة. انطلقت القذائف والصواريخ، والقنابل الفسوفورية الحارقة من الجو والأرض ، ومن البحر، كأن المراد بهذه الحرب ليس القضاء فقط على أية قدرة في الشعب الفلسطيني على المقاومة، بل أيضاً محاولة القضاء على أية قدرة له للبقاء، أو على حقه في الوجود. تكررت مشاهد البيوت، والمستشفيات، والمدارس، والجوامع، ومراكز الأمن التي تحترق أو تنهار، تكررت مشاهد الرجال، والنساء، والأطفال الذين قُتلوا أو تمزقت أجسامهم، مشاهد الذين يبحثون عن أخ، أو أخت، أو زوج، أو ابن، أو أب، أو أم تحت الأنقاض. توالت المظاهرات التي كانت تُندد بجرائم إسرائيل، وتواطؤ أمريكا مع العدوان، وتخاذل الحكام العرب. كثرت صور الرجال الملتحين، والنساء المحجبات، أو المنتقبات الذين كانوا يرفعون أعلاماً خضراء كُتب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتحتها السيف المنزوع من غمده، وفي آخر النهار ظهر "هنيه" في التليفزيون وهو يقول: "سندافع عن فلسطين إلى آخر طفل من أطفالها."

في اليوم التاسع للعدوان الإسرائيلي قرأت في صحف الصباح أن عدد ضحايا الحرب وصل إلى أربعمائة وثمانين قتيلاً وإلى سبعمائة جريحاً، وفي هذا اليوم انتقلنا من الدقي إلى شقة أمنية في مدينة الشيخ زايد، إلى تلك العمارات القبيحة الصفراء التي خُصصت لمحدودي الدخل. مع ذلك كنت أشعر بالراحة في هذه الشقة. كانت تعكس ألفة الحياة التي نعيشها سوياً. أمامها كانت تُوجد مساحات لم تمتليء بعد بكتل الحجر والأسمنت. أجلس إلى جوار النافذة لأطل عليها، على

السائرين في الشارع، وعلى العمال يتحركون على أسطح هياكل البناء أو يدقون على قوائم الخشب بذلك الإيقاع السريع، المنتظم لليد المدربة، فتبدو الأشياء أمامي عادية هادئة كأنه لا توجد على حدودنا حرب يموت فيها رجال، ونساء، وأطفال لا يريدون شيئاً سوى أرض يزرعونها، وطعام يأكلونه، وسقف يحميهم من حياة التشرد.

مرّ يوم أو يومان، أو ربما ثلاثة وسمعت أن هناك مؤتمراً سيُعقد للتضامن مع شعب غزة، فقلت لأمنية:

"تناولي أنتِ عشاءك. سآكل أنا عندما أعود. قالت:

"سأنتظرك لنأكل سوياً."

اجتزت الطريق إلى وسط البلد في سيارة ميكروباص انطلقت كالحصان الجامح على طريق المحور، ثم سرت ما تبقى من المسافة إلى مكان المؤتمر على قدمي. جلست في الصالة أستمع إلى رجال يصرخون في مكبرات الصوت، ثم عدت إلى البيت. تناولنا العشاء، ثم جلست هي أمام الكمبيوتر تبحث عن شيء في الإنترنت، وجلست أنا على مكتبي ممسكاًً بالقلم بين أصابع زاد ارتعاشها.

في اليوم الثالث عشر للعدوان أصبح عدد القتلى في هذه الحرب سبعمائة وخمسة وستين قتيلاً، وعدد الجرحى ثلاثة آلاف وسبعة عشر، نصفهم من النساء والأطفال. الأرقام تتضاعف أمامي دون أن يكون لها صدى في نفسي. حتى مشاهد التليفزيون، حتى الدماء التي تسيل، حتى عيون الأطفال يُطل منها الفزع لم تعد تُحرك فيّ شيئاً، ربما فقط وجه صامت تجتاز ملامحه رعشة تكاد لا تظهر، فقط الألم العاجز عن النطق. أكتب كلمات لأقايض بها صوت ضميري لم يعد يهتز، فأنا من المتاجرين بأقلامهم، مثل الذين يظهرون في شاشات التليفزيون، ويتحدثون عن صمود الشعب وهم مرتاحين في بيوتهم، أو جالسين أمام

الميكروفونات يرتدون أربطة للعنق زاهية اللون، وسترات أنيقة أغلقوا أزرارها، فما الفارق بين كلام وكلام في هذه الحرب نسميها معركة الشجعان، بينما هى معركة الحكام، والقادة الانتهازيين، معركة جنرالات إسرائيل، معركة ضحايا النظام الاستعماري الرأسمالي الجديد الذي يضمن بقاءه بإشعال الحرب، معركة ضحايا الشرق الأوسط الجديد تُصبح فيه فلسطين مستأنسة، مكسورة الجناح.

كتبت في الدفتر الأزرق الصغير ١٠ يناير ٢٠٠٩ "اليوم الثالث عشر للعدوان، عدد القتلى ثلاثمائة وعشرين، وعدد الجرحى ثلاثة آلاف ومائتان وخمسين جريحاً. ثم تساءلت ما فائدة هذا التسجيل في عالم يُصدر فيه السلاح قرارات للموت لا رجعة فيها.



الفصل الثالث عشر

المياه تُكذّب الغطاس

أقف في الأتوبيس. الدنيا ليل، والأتوبيس مزدحم بالركاب. أريد أن أهبط منه بعد محطتين. يجيئني صوت الكمسري وهو يُنادي: تذاكر.. تذاكر." لمحته رجلاً قصير القامة، يرتدي سترة من قماش الجينز، وينحشر في زحام الركاب ليصل إليّ. أخرجت حافظة نقودي وسحبت ورقة بعشرين جنيهاً خضراء اللون وضعتها في يده الممدودة إليّ، وقلت له أعطني الباقي فأريد أن أهبط بعد محطتين، لكنه اختفى. حاولت دون جدوى أن أخترق كتلة الأجسام المتراصة حتى ألحق به، فضاعت مني المحطة التي كنت أريد أن أهبط فيها. تركت الأتوبيس في المحطة اللاحقة لها لأجد نفسي في مكان مهجور، ترتفع فيه صخور، وبيوت مغلقة الأبواب والشبابيك. بحثت عن وسيلة للخروج من حصارها، عن شخص يدلني على طريق يمر من بينها، لكن لم أجد أحداً. فجأة سمعت وقع عجلات تصطك بالأرض الصلبة، ولمحت عربة كارو يجرها حمار، ويقودها رجل يرتدي جلباباً ممزقاً إلى شراشيب. أشرت إليه فأوقف

العربة، ونزل منها، لكنه تركني وأخذ يهبط على درجات منحوتة في الصخر تتلوي بين البيوت. دخل أحدها واختفى. شعرت بالخوف، فقد بدت لي كل سبل الخروج من هذا المكان الموحش مغلقة، ثم وجدت نفسي واقفاً عند حاجز يُطل على مساحة مفتوحة من الأرض تنحدر من الجبل، وتنمو فيها نباتات خضراء يانعة، فقفزت من فوق الحاجز، وانزلقت هابطاً على المنحدر بسرعة، وقد تملكني إحساس بالنشوة لكن قبل أن أصل إلى نهاية المنحدر استيقظت لأجد نفسي في السرير إلى جوار أمنية. غمرتني فرحة طاغية. مددت يدي لأمسك بذراعها، وظللت ساكناً، مفتوح العينين، أستمع إلى أنفاسها، شاعراً بالراحة إلى أن سقطت في النوم. أيقظني صوتها وهى تهز كتفي برفق وتقول:

"صباح الخير. الساعة الآن السادسة. هل ستتريض اليوم، أم تُريد أن تستريح؟"

ونحن نتناول الإفطار حكيت لها الحلم، فقالت:

"إنه حلم غريب. هل حكيت لي كل ما جرى فيه؟"

قلت:

"نعم، كل ما استطعت أن أتذكره، فمنذ أن استيقظت بذلت جهداً لاسترجاعه. ربما سقطت مني بعض التفاصيل. الأحلام عادة فيها غرابة. استرجاعها مهم. هل قرأت ما كتبه كارل يونج عن الأحلام؟"

قالت:

"لا.. عندما أحلم أبحث عن تفسير الحلم في ابن سيرين."

ضحكت:

"ابن سيرين؟ أهو الكتاب الأزرق الذي أراك تبحثين فيه أحياناً في الصباح بعد استيقاظك من النوم؟"

قالت:

"نعم، هو.. أنا أهتم بتفسير الأحلام فهى تُنبئني بأشياء قد تحدث لي."

قلت:

"أقترح أن تستبدلي ابن سيرين بكارل يونج. إنه عالم نفساني مهم، وأنا شخصياً استفدت من قراءته. يرى أن الأحلام لها دلالة ذات مغزى في حياة الإنسان ويُمكن أن تُضيء له حقائق عن نفسه، عن أشياء في تكوينه. إنها تُعبر عن المعرفة المدفونة في اللاوعي. يرى أيضاً أن لها مدلول جمعي، إنها خبرة وثقافة توارثتها الأجيال المتعاقبة. هذا بصرف النظر عما يُمكن أن تعكسه من أسباب للخوف، أو مشاعر الإحباط المدفونة في النفس."

قالت:

"أنا أحلامي تُنبئني فقط بأشياء سيئة أو مضرة ستقع لي."

قلت:

"ربما... لكني لا أؤمن كثيراً بهذا. لكن الأحلام قد تلعب دور البوصلة التي تُشير إلى قرار يجب اتخاذه، أو تحذر من خطوة خاطئة قد نقدم عليها فهى خزين من الخبرات السابقة تراكمت في اللاوعي."

سألت:

"ما تفسيرك لهذا الحلم؟"

قلت:

"هذا يحتاج إلى تفكير. ربما القفز فوق الحاجز يعني أهمية المجازفة، الإقدام على قرار يبدو لي صعباً، لكن ليس في ذهني الآن قرار يجب أن أتخذه."

قالت:

"أريد أن أواصل المناقشة معك لكني مضطرة إلى الذهاب إلى الأكاديمية اليوم. هناك مشكلة تتعلق برسالة الدكتوراة، ليس لدي الوقت لأشرحها لك الآن."

إحساس دفين جعلني أقول:

"فلنلتقي في الأكاديمية قرب الساعة الواحدة بعد الظهر."

قالت:

"لا داعي لهذا. يُمكنك الانتظار في البيت حتى أعود."

قلت:

"لا.. أقترح أن نتناول طعام الغذاء في الخارج. ما رأيك في البوري المشوي؟"

ضحكت:

"بوري مشوي؟ ليس عندي مانع بالطبع."

قلت:

"إذن موعدنا في الأكاديمية الساعة الواحدة بعد الظهر."

وصلت إلى الأكاديمية قبل الموعد. انتظرت في الحوش وبعد ربع الساعة تقريباً لمحتها وهى تهبط على السلالم ببطء، وفي وجهها ذلك الجمود الذي أُدرك أنه يخفي وراءه شيئا مكبوتاً. لم تلحظ وجودي فناديت عليها. اقتربت مني وعندما وصلت إلى حيث كنت أقف فُوجئت بالدموع تنحدر على وجهها. أمسكت بيدها وبحثت عن مكان يُمكن الجلوس فيه، لكن الحوش كان خالياً من الدكك، فقلت لها:

"لنبحث عن مقهى قريب من هنا يمكن الجلوس إليه."

أخرجت منديلاً من الورق، ومسحت دموعها، ثم سرنا إلى البوابة. اتجهنا إلى شارع خاتم المرسلين كنت أعرف فيه مقهى صغيراً. تركنا المقاعد القليلة الموجودة على الرصيف ودخلنا في الصالة. رفضت أن تتناول شيئاً، فطلبت من النادل أن يُحضر لي كوباً من اليانسون خالياً من السكر. أخذت منه رشفة ثم تركته جانباً وسألتها:

"ما الذي حدث يا أمنية؟"

قالت:

"حدث ما كنت أتوقعه. بعد أن تقدمت لشغل وظيفة مدرس في المعهد اتضح أن هناك زميلة لي متزوجة من أستاذ في معهد السينما تسعى مثلي لنيل الدكتوراة، وتقدمت هى أيضاً لهذه الوظيفة في قسم النقد السينمائي والتليفزيوني. طلبت منها لجنة مجلس الأكاديمية أن تُجري بعض التعديلات في الخطة التي تقدمت بها، وأصدرت قراراً بالموافقة عليها. أما فيما يتعلق بي فطلبت تعديلات في الخطة دون أن تتخذ قراراً بقبولها أو برفضها. معنى هذا أنه لابد لي من التقدم بخطة بحثي من جديد، وهذا سيُضيع عليَّ عدة شهور. تحايلوا لكي يضمنوا لها الأسبقية في التقدم للوظيفة التي نسعى إلى شغلها نحن الأثنتان."

سألتها:

"هل تُريدين أن نبقى هنا لبعض الوقت، أم الأفضل أن نذهب إلى مطعم السمك؟"

قالت:

"أفضل أن نعود إلى البيت."

في سيارة الأجرة التي ركبنا فيها لتحملنا إلى شقتي في الدقي سألتها:

"ألم تقولي مراراً أن ما يهمك قبل كل شيء آخر هو أن تتفرغي لعملك ككاتبة سيناريو؟"

لم ترد عليَّ، فكررت السؤال:
"هل تريدين أن تكونِي كاتبة سيناريو، أم أن تُصبحي مدرساً للنقد السينمائي؟"
قالت:
"هل أنت تحتاج لأن أجيب على هذا السؤال؟"
قلت:
"طبعاً، فقد بدأت أشك في أن هناك تغيير."
نظرت إليَّ في ضيق، فقلت:
"هذه النظرة تكفيني. إن كنتِ كاتبة سيناريو فعلاً، فما الذي يُضيرك فيما حدث؟"
عادت إليها نظرة الضيق. قالت:
"يا عزت. كفاني ما حدث في الأكاديمية. لماذا تريد أن تُضيف إليه؟ سأضيع ستة شهور من حياتي في انتظار التقدم بالخطة من جديد."
سألتها:
"ولماذا لا تبدأين العمل في الرسالة منذ الآن. هكذا لن تضيع عليك هذه الشهور."
قالت:
"وما العمل إن رفضوا ما سأتقدم به بعد إجراء التعديلات التي طلبوها مني؟"
قلت:
"لا يمكن أن يحدث هذا. ستكون فضيحة، وهم ليسوا في حاجة إلى فضائح أخرى. لقد حققوا ما كانوا يهدفون إليه، وهو ضمان الأسبقية لربيبتهم في التقدم للوظيفة. أما أنت فعليك أن تتقدمي برسالة تتفوق في مستواها على كل الرسائل التي تم تقديمها في المعهد عن موضوع يتعلق بالسينما. هذا هو التحدي الحقيقي، فابدئي في العمل الآن."

أطلت من النافذة في صمت، فقلت:
"أضعت علينا أكلة السمك، لكن هناك ما هو أهم."
التفتت إليَّ وفي عينيها تساؤل قلق. قالت:
"ماذا؟"
قلت:
"لم نعد نمارس الحب."
ضحكت:
"أنت مستغرق في الكتابة فلا تحدثني عن الحب."
قلت:
"إنه الشتاء. الدنيا برد، لكن لابد أن نتغلب على هذا. يُمكن أن نقوم بتشغيل مدفأة الزيت المركونة بجوار الدولاب."
نظرت إليَّ وعلى وجهها ابتسامة ساخرة. قالت:
"المياه تُكذب الغطاس."
قلت:
"أنا قابل التحدي... لكن."
"لكن ماذا؟"
"تذكرت أن الدور عليَّ في تنظيف البيت"، فترددت ضحكاتنا عالية.
أشعل السائق سيجارة، ثم التفت إلى الوراء، ومد يده بالعلبة إليَّ قائلاً:
"اتفضل سيجارة.. ربنا يفتحها عليكم إن شاء الله."

الفصل الرابع عشر

حياة الآخرين

انتهيت من قراءة رواية للمؤلف مارتن فالتزر تمت ترجمتها من الألمانية إلى اللغة العربية. تحكي هذه الرواية قصة الحب الذي وقع فيه الشاعر والمفكر "جوته"، بعد أن وصلت سِنُّه إلى الثالثة والسبعين. ربط هذا الحب بينه وبين امرأة شابة تُدعى أولريكة، فتاة يافعة من أسرة أرستقراطية، لم يتجاوز عمرها تسع عشرة سنة، فكان فارق السن بينهما أربع وخمسين عاماً.

اسم الرواية رجل عاشق، كتبها المؤلف بعد أن أصبحت سِنّه واحد وثمانين سنة، فسمح له التقارب العمري بينه وبين جوته بأن يستشف الحالة التي عانى منها رجل أصبح مثله في مرحلة الشيخوخة، بأن يُعبر عن أعراضها الجسدية، والنفسية بأسلوب مقنع، وبأن يتناول مسألة مرور الزمن، وأثره على الشاعر العجوز بأسلوب مؤلم، وأحياناً ساخر، وبمهارة فنية جاءته من تجربة طويلة في الكتابة. سمح له هذا في الوقت نفسه بأن يطرح تساؤلات متعلقة بالحب، والشيخوخة، والموت، وبالعلاقة بين الكتابة والحياة.

كان الشاعر جوته رجلاً يحيا في الكلمات، في الخيال، ويتوهم أنه بعواطفه المتدفقة يستطيع أن يتغاضى عن حقيقة جسده المقترب من الفناء، عن خطواته المترنحة، وقدراته العاجزة، عن العِلل التي تصيبه، عن عدم استطاعته الاستجابة لتوقعات الجسم الأنثوي الشاب الفائر بالحياة.

عشت مع هذا الكتاب أياماً جعلتني أفكر في العلاقة التي ربطت بيني وبين أمنية، وأعادت إليّ خواطر، وأحاسيس كانت تتملكني في بعض الأيام، وتجعلني أتساءل إن كنت قد أخطأت في إطلاق العنان لعواطف الحب التي تملكتني إزاءها. فرغم الحب الذي أكنه لها، شعرت بأنها مظلومة في هذه العلاقة، تتحمل عبئاً نفسياً وجسدياً في حياتها مع رجل وصل إلى السن التي وصلت إليها.

عندما انتهيت من قراءة الرواية قلت لها:

"قرأت رواية عن حياة جوته، والحب الذي جمع بينه وبين امرأة شابة وهو في سن الشيخوخة."

قالت:

"اعطني إياها."

بعد أيام سألتها:

"هل قرأتِ الرواية عن جوته التي أعطيتها لك؟"

قالت:

"قرأتها.. أظن أنك أخذت تقارن بينها وبين أشياء في حياتنا. لذلك تريد أن تعرف رأيي فيها."

"نعم."

"إنها رواية لا بأس بها، لكني أحسست أنها ليست رواية عميقة، أن نظرة المؤلف إلى علاقة جوته بالمرأة الشابة أولريكة كانت تقليدية، أو بالأحرى أنها هى نفسها كانت علاقة تقليدية. أما أنت وأنا فالعلاقة بيننا مختلفة. أولريكة كانت فتاة من أسرة أرستقراطية، لم تكن لها حياة

خارج نطاقها، لم تعمل، ولم تعاني في حياتها. أُفتتنت بجوته لأنه كان شاعراً يتمتع بشهرة واسعة، يتجمع المعجبون حوله، ويُعبرون عن هذا الإعجاب في الوسط الذي كانت تنتمي إليه. كانت عاجزة عن فهم هذا الإنسان، ودوره وفكره. الأرجح أن اهتماماتها كانت مُكرسة للحفلات، للعلاقات الاجتماعية، للرقص والجنس، لاختيار الفساتين التي تتلائم مع قدّها، مكرسة للاستمتاع بحياتها الرخية دون وجع دماغ، أو بحث عن معنى آخر لها بعيداً عن كل هذا، لذلك انتهت بالزواج من رجل أعمال شاب مثلها. أما أنا فلست أولريكة، وأنت لست جوته الرجل الذي دانت شهرته الآفاق. لست رجلاً عجوزاً يسوقه خياله، فيُفتتن بطفلة مدللة، بشبابها وجمالها، وعندما تبتعد عنه يكاد أن يفقد عقله. الحب أنواع لكن هذا النوع مكرر." ضحكت ثم ألقت إليَّ بإحدى نظراتها المشاكسة وقالت: "أنت شيطان، فابحث عن رواية أفضل. فالتزز هذا ليس سوى كاتب عثر على موضوع قد يروق للكثيرين فكتب عنه."

في المساء ذهبت لحضور اجتماع يتعلق بأحداث الحرب في غزة. الحاضرون في الاجتماع أساساً كانوا من ممثلي أحزاب المعارضة. تحدثوا عن مقاومة الصهيونة عالمياً وإقليمياً، ومحلياً في بلادنا. وقرب آخر الجلسة سألتهم عن العمل الذي سيقومون به للقيام بالمهمة الصعبة التي تحدثوا عنها، فنظروا إلي بعضهم البعض، ولم يرد عليَّ أحد منهم، ثم انشغلوا بالحكي فيما بينهم، بإعادة حاجاتهم إلى الحقائب التي كانوا يحملونها، بفحص محتوياتها حتى يطمئنوا أنهم لم ينسوا شيئاً، ثم أغلقوها قبل أن ينصرفوا سوياً وهم يُواصلون الكلام، ويضحكون على تصرفات أحد منهم كان غائباً في هذا اليوم، فبقيت أنا وحدي جالساً في الحجرة الخالية من كل الحاضرين ما عدا رئيس الحزب فقد كان يبتسم في الصورة المعلقة على جدار الغرفة.

عدت بعد أن قاربت الساعة العاشرة مساءً. حملقت في وجهي وسألتني:

"تشرب ينسون أم كأساً من الويسكي؟ يبدو أن الاجتماع لم يكن إلا تكراراً للعبث الذي يحدث في كل مرة. تُرى متى تتغير الأمور، ويحدث شيء له مغزى؟"

قلت:

"سيحدث، لكن متى لا أحد يعلم. ربما الإضرابات المتكررة، وبعض التحركات ستمهد لما هو أكبر."

قالت:

"لم ترد عليَّ، أتريد كأساً من الويسكي؟"

"قلت..ربما بعد أن ننتهي من درس اللغة الإنجليزية. هل قمتِ بمراجعة الكلمات التي صادفتنا أثناء درس الأمس؟"

هزت رأسها بالإيجاب، ثم قامت. أحضرت الكراسة التي تُسجل فيها معاني الكلمات، وقلماً، وقاموس المورد، والكتاب الذي اخترناه للقراءة. كانت رواية قامت بتأليفها امرأة أمريكية اسمها لويز دي سالفو تنتمي إلى أسرة من الطبقة العاملة هاجرت من إيطاليا، واستقرت في الولايات المتحدة الأمريكية. عندما كبرت وتعلمت، عملت أستاذة للأدب المقارن في كلية هانتر. الرواية اسمها فيرتايجو، وهي أساساً سيرة ذاتية حكت فيها المؤلفة تفاصيل كثيرة عن حياتها، كيف عانت من حالات الاكتئاب والدوار التي كانت تُصيبها ومع ذلك كيف حرصت على القيام بواجباتها المنزلية. كانت ترعى زوجها وطفليها، وتنظف بيتها وتُعد وجبات الطعام، وتغسل وتنشر وتكوي الملابس فحكت أنها أحصت عدد الوجبات التي أعدتها فاتضح أنها تجاوزت أربعة آلاف وجبة. هذا في الوقت الذي كانت تقوم فيه بإعداد

المحاضرات الخاصة بالطلبة والطالبات في الكلية، بالإشراف عليهم، وعلى امتحاناتهم، وتتحمل قهر أبويها، وتزمتهم، ومشاكلهم الأسرية المستمرة، فأختها الأصغر منها كانت تُعاني من نوبات الاكتئاب، وانتهت بشنق نفسها، لذلك فقد أصيبت أمها هى أيضاً بمرض نفسي، وقضت شهوراً في مستشفى للأمراض العقلية، ثم عندما خرجت منها، وعادت إلى بيتها لم تمر ستة شهور حتى قامت بشنق نفسها بحزام من الجلد مثلما فعلت ابنتها الصغرى.

حكت الكاتبة كيف استطاعت أن تتعامل مع كل هذه الصعوبات، وأن تتغلب عليها لتُصبح أستاذة في الجامعة، وما هو أهم من ذلك أن تُصبح كاتبة تُؤلف القصص، والروايات. كيف شقّت طريقها في حياة تُحاصرها بالمشاكل حتى تنطلق خارج نطاق الوجود الضيق لأسرتها لتغزو عالم الإبداع، كيف صارت تنتزع نفسها من حصار الضغوط والمسئوليات المتعددة التي كانت تتحملها لتجد ساعات من الهدوء تستطيع أن تستغرق أثناءها في أفكارها، أن تُحلق بخيالها مع النصوص والكلمات، كيف تحولت الكتابة والقراءة إلى عوالم أنقذتها من المصير الذي يتربص بها في أدغال الاكتئاب كأنه ينتظرها في الكواليس المظلمة لينقض على عقلها.

قالت أمنية:

"اختيارك لهذا الكتاب أفادني جداً، فالمشاكل والمواقف التي كانت تُعاني منها المؤلفة ليست غريبة على امرأة مثلي أحاطت بها ظروف من بعض الوجوه مشابهة." همس صوت في أعماقي يقول: "ليتني أعيش حتى تتحدث أمنية وتكتب اللغة الإنجليزية دون أن يتعثر لسانها، أو يهتز قلمها.



الفصل الخامس عشر

الجحيم على الأرض

كانت السماء مغطاة بسحب قاتمة. جلست على المكتب أقلب في صفحات كتاب الأغاني، ثم أغلقته دون أن أقرأ شيئاً. ظلت الكلمات ترقص أمام عينيَّ تكوَّن فيها غشاء رفيع على الشبكية يُعطل الرؤية، ويجعل القراءة صعبة. كل الأشياء صارت تُثقل على نفسي، أو فاترة كأن بيني وبينها مسافة، حتى الكتابة، حتى الشيكولاتة السوداء التي كنت أهواها.

جاءني صوت أمنية تُدندن بأغنية في الحمام. قمت من جلستي واقتربت من بابه. نقرت عليه نقرتين ثم فتحته. كانت منهمكة في دعك ساقيها بالليفة. تأملت قدميها القويتين الراسختين على بلاط الحمام. قلت:

"سأهبط لأستنشق قليلاً من الهواء."

قالت:

"احترس أثناء السير، فالعمال يُلقون بالحجارة على الطريق، ويتركون أكواماً من الزلط."

ارتديت حذاء المشي وخرجت. في الحوش نبهت المشرف الصعيدي الأسمر أن العمال سدوا جميع الهوايات وهم يُدهنون مادة صفراء عازلة اسمها درامكس على جدران العمارة، وأن عليهم أن يُزيلوها، ثم توجهت إلى الطريق. وأنا عائد بدأت السماء تُمطر فسرت تحت صف من الأشجار كان رذاذ من المطر يسقط منها، وفجأة اصطدمت إحدى قدمي بقطعة من الحجر، فانزلقت وسقطت منبطحاً على أسفلت الشارع. أحسست بألم الصدمة، وطارت نظارتي من على وجهي لتقع بعيداً عني. ظللت راقداً على الأرض قليلاً حتى أستجمع قوايَّ، ثم أسندت نفسي على يديَّ، وركبتيَّ وقمت. بحثت عن النظارة إلى أن وجدتها منزوية قرب الرصيف. أخرجت منديلاً من الورق من جيب البنطال وأزلت ما عليها من طين، ثم أعدت ارتدائها، فاكتشفت أن الدم أخذ ينزف من أنفي حتى تكونت عليه جلطة تُشبه المنقار. فحصت جسمي بيدي لأتبين مواضع الجروح والسحجات، وأطمئن عليها. كان الظلام قد بدأ يهبط، فاستأنفت السير. عند أحد المفارق لمحت أمنية قادمة. جاءت تبحث عني بعد أن طال غيابي، فقد نسيت أن أحمل معي التليفون المحمول وأنا أهبط من الشقة. اقتربت مني، وحملقت في وجهي فبدا عليها الانزعاج. أمسكت بيدي وسألتني:

"مالك؟ ما الذي جرى لك؟ على وجهك تُوجد جروح ودم."

قلت:

"حاجة بسيطة. انزلقت وأنا سائر. لا يُوجد شيء في جسمي، ربما فقط رضوض."

قالت:

"لابد من تطهير الجروح. يجب أن نذهب إلى البيت فوراً."

قلت:

"لكني لم أكمل مسافة التريض التي أجتازها عادة، ولم أُسرع الخطوة في الجزء الأخير لأختبر قدرة القلب على التحمل. أُريد أن أعرف الحد الأقصى من الجهد الذي يُمكن أن أبذله حتى لا أحدّ من حركتي دون داعٍ.

قالت:

"لكن تطهير الجروح مسألة ضرورية. يُمكنك أن تتريض باكر."

قلت:

"أنتِ تنزعجين من أقل جرح، من فقداني ولو نقطة واحدة من الدم. الجسم فيه خمسة آلاف سنتيمتر من الدم. أُريد أن أكمل رياضتي قبل أن أعود."

تطلعت إليّ في ضيق وقالت:

"أنت عنيد."

قلت:

"صحيح. لكن العند عندي محسوب. لذلك عشت حتى الآن."

توقفت عن محاولاتها لإقناعي بضرورة العودة إلى البيت، وصارت معي إلى أن قطعنا المسافة المتبقية، ثم عدنا إلى الشقة فقامت بتطهير الجروح. منعتها من إزالة الجلطة القبيحة التي تكونت على وجهي، خوفاً من إحداث نزيف جديد نتيجة أدوية سيولة الدم التي كنت أتناولها عقب قيامي بتركيب دعامة في أحد شرايين القلب. بعد أن

انتهت من تطهير جروحي فتحت التليفزيون لنشاهد إذاعة الأخبار على قناة الجزيرة، أُذيع بعدها حوار مع طبيب عظام من النرويج يُدعى ماديس جلبرت قضى عشرة أيام في غزة أثناء العدوان الإسرائيلي. تتبعنا الرجل النحيل الجالس أمام المحاور يرتدي قميصاً أزرق، وبنطالاً كحلي اللون، فكان أشبه بعمال الورش في بلد أوروبي. قال إنه قبل أن يذهب إلى غزة قضى عدة أسابيع في العراق، ثم في أفغانستان، لكنه اقتصر في كلامه على المدة التي قضاها في غزة، عن الأيام والليال العشر التي عاشها مع سكانها، أطلقت إسرائيل أثناءها عشرات الآلاف من الصواريخ، والقذائف المدمرة عليهم، عشرة أيام عاشها محاطاً بالجثث، بأجسام تقطعت أوصالها تحت انفجارات قنابل الفسفور تتناثر شظاياها من حولها، فتحرق وتفحم لحم البشر الذين تسقط عليهم، وتُشعل الحرائق في كل مكان، بانفجارات قنابل الدايم التي تحمل مواداً مشعة تنشطر في الجسم، وتمزق العظام واللحم، فيستحيل علاج آثارها إلا بالبتر، ثم بعد مرور سبعة أو ثمانية أشهر يُصاب الذين سكنت الشظايا في أجسامهم بأورام سرطانية تنمو، وتنتشر بسرعة في أعضائهم.

في حديثه اتهم إسرائيل بأنها حولت غزة إلى حقل تجارب للأسلحة الحديثة، الأكثر فتكاً عن كل ما استخدم من قبل. تحدث عن آلاف الضحايا من الرجال، والنساء، والأطفال، والشباب. وصف بعض الحالات بالتفصيل، مثال ذلك الشاب الذي تحول جسمه إلى قطعة من اللحم الدامي، إلى جذع بلا قدمين، أو ساقين، أو ذراعين، بلا عينين يرى بهما، بلا قدرة على السمع أو النطق ليُجسد بشاعة الحرب التي شنتها إسرائيل على مليون وربع المليون من الفلسطينيين يعيشون في مساحة مائة وخمسين كيلومتراً مربعاً من الأرض، فاهتز صوته وهو يحكي ورأينا دموعه وهى تسقط من عينيه.

في نهاية كلامه أوضح أنه ليس منحازاً لحماس أو لفتح، لكنه يتعاطف مع شعب غزة في محنته، ويدعو الناس للتضامن معه حتى يتمكن من مواصلة الحياة فهو يعيش في حصار لا يرحم، بلا ماء، ولا كهرباء، بلا مدارس للأطفال، بلا طعام على المائدة. قال عن غزة أنها مليون ومائتي ألف رجل، وامرأة، وطفل يعيشون في جحيم على الأرض.

مر أسبوع بعد أن شاهدت هذا الحديث عندما بلغني أن صديقًا لي في حالة صحية سيئة، وأنه لم يعد يغادر البيت، فاتصلت به واتفقنا على موعد أقوم فيه بزيارته. هكذا في أحد الأيام وجدت نفسي سائراً في شارع مزدحم بالسيارات والحوانيت، والناس، قرب مستشفى الجمعية الإسلامية بالعجوزة، المعروفة في جيلي باسم مستشفى المواساة. كانت لا تزال قائمة بمبانيها ذات الطراز المعماري المتميز بعد أن أفلتت من يد ثلة من المستثمرين كانوا يريدون أن يقوموا بالسطو على أراضيها الواسعة، وعلى موقعها الفريد أمام النيل.

صعدت إلى الدور الأول في إحدى العمارات. كانت ساعتي تُشير إلى الواحدة بعد الظهر. ضغطت على جرس الباب، لكنه ظل مغلقاً، فضغطت عليه مرة ثانية فُتح بعدها ليظهر صديقي مرتدياً عباءة داكنة، بنية اللون، وطاقية تهبط على رأسه حتى الأذنين. خلف مساحة الاستقبال التي كان يقف فيها امتدت غرفة واسعة لم يكن يُضيئها سوى مصباح أباجورة عند طرفها البعيد. بدا لي صديقي مثل الشبح الذي برز فجأة من الظلام. ظننت أنني حضرت في وقت ليس مناسباً، فأبديت استعدادي لتأجيل الزيارة إلى وقت آخر، لكنه أصر على بقائي. أمسك بذراعي، وقادني إلى الطرف البعيد المضاء من الغرفة، وأجلسني على أريكة قبل أن يأخذ مكانه إلى جواري على مقعد قريب.

كان جو الغرفة كئيباً، فالجدران، والستائر، والأثاث، والسجاد المفروش على الأرض ألوانها جميعاً قاتمة. كذلك المكتبة الضخمة الممتدة

بطول أحد الجدران، والمزدحمة بكتب سميكة أغلفتها داكنة، وعناوينها المذهبة تُوحي بالمعارف القديمة. أما جهاز التليفزيون الضخم، وأجهزة الموسيقى فبدا عليها أنها ظلت تغط في الصمت منذ زمن بعيد. شعرت بغرابة في كل هذا فقد كان يتناقض مع ما كنت أعرفه عن صديقي الرجل الحساس، والشغوف بمعرفة كل جديد رغم الميول الصوفية التي انطبع بها في نظرته للحياة. لكن ما جعلني أنسى كل هذا كانت مظاهر المرض السرطاني الذي صار ينهش فيه، فأخذت ألقي بنظرات خاطفة على الرجل الذي خاض معارك طويلة من أجل حرية الفكر، ومن أجل العدالة، وظل إنساناً متواضعاً على الدوام، وأنا أشعر أن نهايته جاءت قبل الآوان بسنين، وأنها صارت قريبة، فقد ظل جالساً إلى جواري في صمت ويده اليسرى ملفوفة في رباط من الشاش يُخفي ثقوب الإبر التي غُرست فيها، وقد تحولت بشرته إلى لون نحاسي داكن، تناثرت عليها نقاط صغيرة دامية بسبب الكيماويات التي كان يُعالج بها.

حاولت أن أهتدي إلى خيوط لحديث يُمكن أن ننشغل به لكن دون جدوى. أحسست أنني أجلس مع رجل عندما أخاطبه لا أجده معي، رجل معذب في كيانه، غائب في المسافة التي تفصل بين وجوده الحي، والموت الزاحف عليه بخطى ثابتة. بعد أن مرت مدة تقل عن نصف الساعة ابتعلت فيها كوب عصير المانجو الذي أحضره لي بنفسه. واستأذنت بالانصراف شاعراً أنني بذلك سأريحه من عبء زيارتي له، هارباً من عجزي، وفشلي في أن أجعل منها شيئاً له قيمة.

هبطت إلى الشارع ثم سرت فيه قليلاً قبل أن أنحني في اتجاه كورنيش النيل. عندما وصلت إلى الرصيف الممتد إلى جوار النيل رن تليفوني المحمول، وجاءني صوت أمنية وهى تسألني:

"أين أنت الآن؟" فلما أجبت قالت: "ماله صوتك؟ هل حدث لك شيء؟ متى ستعود إلى البيت؟ أريد أن أعرف حتى أعد طعام الغداء."

تفاديت أسئلتها وقلت:

"لا أعرف.. ربما بعد ساعة أو أكثر. لا تنتظريني. عندما أعود سأحكي لك عما جرى في الزيارة."

أعدت التليفون المحمول إلى جيبي، وواصلت السير. كنت أريد أن أمشي، ألا أتوقف عن المشي. لمحت على يميني العمارة التي كان يُقيم فيها يوسف إدريس فتملكني إحساس بالفقدان. تأملت الشجر والناس، والنيل كأنني خارج الحياة التي تتحرك من حولي في الشارع، أو على الرصيف أمام مطعم نعمة حيث جلس عدد من الشباب يقضمون في الساندويتشات التي ابتاعوها ويثرثرون، ويضحكون، فبدا لي ضحكهم غريباً، وغير مفهوم. تجاوزتهم وواصلت السير. لم أكن أريد سوى أن أمشي، ألا أتوقف عن السير، دون أن أعرف إلى أين، أن أواصل الحركة المتلاحقة للقدمين كالآلة التي لا تعي شيئاً.



الفصل السادس عشر

غداً سترقص ألوانها في الشمس

جاء الربيع حاملاً معه عواصف رملية شديدة. قلت لها إنه في شبابي كان الربيع صافياً تتفتح فيه الزهور، ويحمل النسيم عطرها إلينا، فخطر في بالي أنه كعادة كبار السن أصبحت أرى الأيام التي مضت في صورة أجمل مما كانت عليه بالفعل. عندما أصادف بعضهم غالبا ما كنت أتهرب منهم. فالحاضر عندهم قبيح، وفاسد، وليس فيه ما يسر. إذا لمحوني في النادي كانوا يدعونني للانضمام إلى جلستهم، فأتحجج بأن لدي موعداً مع صديق، أو مع أحد أقربائي حضر من البلدة، ولابد أن أقابله، ثم كنت أجلس في مكان بعيد، متخفياً خلف شجرة إلى أن يقوموا من جلستهم للتريض في "التراك"، فأظل أتتبعهم وهم يُجاهدون في السير. أسمع أصواتهم ترتفع عالية في نقاش حول مفاسد الحكم، أو أخبار الفضائح التي واتتهم من مصادر موثوق في كلامها، فهي متصلة

بأحد المسئولين. كنت أتخيل منظري وأنا أهرول معهم حتى لا أتخلف عن الركب، مرتدياً مثلهم ملابس التدريب المستوردة، وحذاءً من المطاط ماركة "أديدس" أو "نايك".

أصل إلى البيت، فأحكي لها كيف أفلت منهم. تقول لي ضاحكة: "أنت شرير. أعرف أنك ستختار من بينهم شخصية لتضعها في رواية من رواياتك،" كنت أنفر من كبار السن رغم أنني أصبحت منهم، وأحن إلى القدرة على الحركة التي كانت جزءاً مني، إلى العدو على كورنيش النيل في الفجر. مع ذلك لم أكن أشعر أن مرور السنين أفقدني الكثير. وهبني معرفة، ومقدرة على تحديد ما أريد.لكن في لحظات قليلة كان يستولي عليَّ الضيق من الضعف الذي يتسلل إلى جسمي، ويتزايد كلما مرت السنين، من مشكلة فى رؤية الأشياء بوضوح تجعلني أبذل جهوداً مضاعفة في القراءة، والكتابة، بارتعاش فى الأصابع، والآلام في عضلات اليد، تُبطيء من الوتيرة التي أكتب بها.

كنت سارحاً في هذا عندما سمعتها تقول:

"سأهبط لأروي الجهنمية فقد تركها العاملون في جهاز المدينة دون أن يرويها أحد منهم. لقد بدأت تجف."

قلت:

"سأهبط معك فأنا مغرم بها مثلك . عبقري من اختار لها هذا الاسم، إنها قادرة على النمو في أي اتجاه، على الزحف أو الصعود، أو الالتفاف حول شيء يعترض طريقها. ألوانها قوية تفترش المساحات وتُشعلها. إنها عدوة الكآبة، والتشابه المُمل."

ألقت إليَّ بنظرة سريعة كأنها لم تسمع شيئاً مما قلت. أنزلت الخرطوم من أعلى الخزانة المعلقة على جدار المطبخ. لفته حول ذراعها، وبحثت أنا

عن الشقرف الذي ابتعته أثناء إحدى جولاتي في وكالة البلح، ثـم توجهنـا إلى باب الشقة، وهبطنا إلى الحوش لنصل منه إلى واجهة العمارة، ففُوجئنـا بـأن العمال الذين قاموا بترميم جدران العمارة أرقـدوا أكياسـاً مـن الأسـمنت في حوض الجهنمية، وأن بعض هذه الأكياس تمزقـت، وانسـكبت منهـا كميـات منـه في الحـوض. عنـدما رأت هـذا المنظـر وقفـت تُحملـق فيـه صـامتة تستوعب الصدمة، ثم دون أن تنتظر خلعـت الشـال الـذي كانـت ترتديـه، وربطته حول خصرها، ثم رفعت كمي القميص القديم الـذي أخذتـه منـي، ومالت على الحوض لتُمسك بطرف أحد الأكياس. شدت عليـه بـبطء حتـى لا يتمزق، وقلبته على الوجه الآخر لتُقربه مـن الممـر الحجـري الـذي يـدور حول العمارة. كررت هذه الحركـة عـدة مـرات إلى أن اسـتقر الكـيس عـلى سطحه، ثم أخرجت الأكياس الخمس الآخرى من الحوض بالوسـيلة نفسـها، كأنها تدربت على هذا النوع من العمل. بعد أن انتهـت مـن نقـل الأكيـاس جلسـت القرفصـاء، وأخـذت تجـرف الأسـمنت الـذي انسـكب فى الحـوض بيديها، لتُكومه عـلى الممـر، ثـم تعاونـا في التقـاط قطـع الحجـر، والمصـيص الجاف التي تناثرت حول الزرع، وألقينا بها على كـوم مـن المخلفـات تُركـت في الشارع. أصبح الحوض خاليـاً تمامـاً مـما كـان فيـه، فأمسـكت بالشـقرف وصـارت تقلـب في الأرض لنـزع الحشـائش التـي نمـت فيهـا ولإزالـة بعـض الأسمنت المتجمد على السطح، ثم قمت بتركيب الخرطوم في صـنبور الميـاه وفتحته فتدفقت في الحوض.

صعدنا إلى الشقة بعد ثلاث ساعات. على يدي أمنية تناثرت الجروح الصغيرة، والخدوش. غسلت لها يديها بالماء الـدافيء لأزيـل عـنهما بقايـا الأسمنت، ووضعت عليهما دهاناً مطهراً، وملطفاً للجلـد، ثـم جلسـنا إلى جوار النافذة ونحن نحتسي قدحين من الشاي. بين الحين والحـين كانـت تُطل على الجهنمية وتقول:

"انظر.. انظر، لقد ردت فيها الروح. غداً سترقص ألوانها في الشمس."

سافرت في اليوم التالي إلى سيناء لتُصور فيلماً عن منطقة سانت كاترين. حملت معها بعض الوثائق، والبحوث، وكاميرا ديجتال، وحقيبة صغيرة للملابس سوداء اللون. مر على سفرها يومان وفي صباح اليوم الثالث رن التليفون المحمول الخاص بي. سألتني:

"كيف حالك؟ هل أيقظتك من النوم؟"

قلت:

"لا.. كنت أتأهب للقيام."

قالت:

"أوحشتني."

قلت:

"وأنت أيضاً."

قالت:

"هل يُمكن أن أحكي لك عن بعض ما جرى في الرحلة؟"

قلت:

"يُمكن طبعاً. لن أترك المنزل إلا بعد ساعة."

سألتني:

"إلى أين؟"

قلت:

"هذا سر."

ضحكت ثم قالت:

"سأعرف منك السر عندما أعود، أما أنا فقد صعدت إلى جبل موسى مع المجموعة يوم أن وصلنا إلى سانت كاترين. تحركنا قرب الساعة الثانية بعد منتصف الليل حتى نصل إلى قمة الجبل في الفجر. كان الجو بارداً كالثلج. فقدت الإحساس بأصابعي، وبطرف أنفي، لكن البرد لم يمنع السياح من الصعود إليه، العشرات منهم، بيض، وسمر، وحُمر، وسود، من مختلف بلاد الأرض." سألتها:

"حُمر؟"

قالت:

"نعم.. هنود حمر، لكن كانوا قليلين، ربما ثلاثة أو أربعة مسيحيون جميعاً بالطبع."

سألتها:

"لكن لماذا الصعود في الساعة الثانية بعد منتصف الليل؟"

قالت:

"حتى يصلوا إلى القمة في الفجر، ويُشاهدوا شروق الشمس، فالمنظر ساعتها رائع يصعب أن أصف تأثيره على كل من يُشاهده."

سألتها:

"هل الصعود سهل؟"

قالت:

"سهل؟ لا.. مرهق جداً، وخطر في بعض أجزائه. لذلك يُفضل السياح أن يصعدوا على ظهر الجمال إلى أن يصلوا على مقربة من القمة. يبدو أن الجمال تستطيع أن ترى في الليل لأنه توجد عراقيل، وصخور، وأماكن يضيق فيها المدق، ويُطل على هوة سحيقة. ربما حفظت تضاريس الأرض من تكرار صعودها على هذا المدك. بعد الموقع الذي تصل إليه

الجمال تُوجد سبعمائة وخمسون درجة لابد من الصعود عليها. هذا الجزء هو الأصعب فهو مرهق جداً لأن الدرج الواحد هنا أعلى بكثير في ارتفاعه عن الدرجات التي تعودنا عليها في بيوتنا. مع ذلك استطعت أن أتحمل تعب هذا الجهد، ربما بسبب صفاء الجو، وجمال الطبيعة منحاني طاقة غير عادية."

سألتها:

"وهل مازلت عند القمة؟"

سمعت ضحكة طويلة مفعمة بالمرح:

"طبعاً لا. هبطنا بالأمس، وقضينا الليلة في فندق طلب السادات إقامته للسياح."

"فخم بالطبع؟"

"لا..أو بالأحرى لم يعد.إنه يتكون من شاليهات مستقلة، مبنية من أحجار اقتطعت من صخور الجبل. إنها تعكس الألوان، والظلال التي تتغير خلال ساعات النهار والليل، فيكون لونها رماديًا ميالاً إلى الزرقة في الفجر، ثم يتغير بالتدريج ليُصبح وردياً، أو أرجوانياً، أو ذهبياً حسب وقت النهار، والتغيرات التي تحدث في الجو."

توقفت عن الكلام فجأة، ثم قالت:

"كارت الاتصالات أوشك على الانتهاء. سأُغلق الخط. يُمكنني أن أصف لك بقية الرحلة عندما أعود، فقد التقطت عدداً كبيراً من الصور. لك حضن طويل مني."

مرت أربعة أيام، وفي مساء اليوم الخامس وأنا جالس في الصالة أقرأ متتالية قصصية بعنوان طحالب للكاتبة الأفريقية ماري واطسون، جاءني صوت دوران المفتاح في الباب. فتركت الكتاب ووقفت. اندفعت نحوي

واحتضنتني، تاركة أمتعتها على الأرض. ظللت ساكناً بين ذراعيهـا امـتص اللحظة، ثم جلسنا على الكنبة. أسندت رأسها على كتفي وظلت صامتة، ثم قالت:

"كيف أنت؟ هل شعرت بأي تعب أثناء غيابي؟"

قلت:

"لا وأنت. كيف حالك؟ هل كانت الرحلة جيدة؟"

قالت:

"نعم، كانت رائعة لكن للأسف لم نتمكن من زيارة الدير لأن الزيـارات لها أيام محددة، لكن سأروي لـك مـا حـدث بعـد أن هبطنـا مـن جبـل موسى."

"لابد أنك مرهقة. الأفضل هو أن تنامي الليلة."

قالت:

"لا أريد أن أنـام. سـأخلع ثيـابي، وآخـد دشـاً. هـل يُمكنـك أن تصـنع لي سـاندوتش تونـة، أو اثنـين، ومعهـما بصـل أخضر إن وُجـد، وطماطـم، وجرجير، أو خيار. أشعر بالجوع."

أثناء تناولها الوجبة التي أعددتها سألتني:

"أظن أنني حكيت لك في التليفون عن الصعود إلى جبل موسى؟"

قلت:

"نعم. حدث."

قالت:

"ربما أسقطت بعض التفاصيل لكن يُمكـن أن أحكيهـا فـيما بعـد. المهـم أخذنا يوما من الراحة بعد الصعود، وذهبنا إلى وادي الأربعـين. إنـه واد

يقود إلى جبل سانت كاترين، الذى هو أعلى من جبل موسى. الصعود إلى قمته يستغرق خمس ساعات بدلاً من ثلاث. لم يكن من الممكن أن نقوم بهذا بعد جبل موسى، خصوصاً أننا كنا مضطرين لعمل حساب مصاريف الرحلة، لكن سرنا جزءًا من المسافة التى يجتازها الناس عندما يصعدون إليه على طريق اسمه الأربعين.

سألتها:

"لماذا يُسمونه الأربعين؟ هذا أيضا اسم طريق يقود من الصحراء في جنوب مصر إلى السودان. تُوجد منطقة هناك اسمها المحاريق اعتقل فيها حمدي الباسل أيام الإنجليز، والإخوان المسلمون، والشيوعيون في عهد عبد الناصر."

قالت:

"لا أعرف لماذا اسمه الأربعين، لكن هناك صادفنا رجلاً أعرابياً متزوجاً من امرأة أنجب منها ثلاثة أبناء، وست بنات. الأولاد يهبطون من الجبل يومياً للذهاب إلى المدرسة. آه نسيت، هناك ابن رابع فتح مقهى صغيراً في خيمة يقوم فيها بتقديم المشروبات الساخنة، والباردة للسياح. أما البنات فتقمن بتطريز الشيلان، والحقائب بالخرز الملون على النمط الشائع في سيناء. الأعرابي يقوم أيضاً بتربية حيوانات من فصيلة الثدييات تحيا في الجبل."

"أرانب برية يعني؟"

"لا.. ليست أرانب برية. اسمها الوبر الصخري، تُشبه الأرانب من بعض النواحي، لكن وجوهها أقرب إلى وجوه الفئران. الغريب أن هيكلها يُشبه هيكل الفيل، مصغرا طبعا، كذلك أقدامها، وحوافرها. الوبر الصخري من الحيوانات المعرضة للانقراض، فالعرب دأبوا على اصطياده لأن طعم لحمه المشوي شهي جداً.

"هل أكلت منه؟"

"لا.. شاهدته فقط في القفص الذي صنعه الأعرابي ليقوم بتربيته فيه. كان رجلاً ظريفاً، قدم لنا أكواباً من الشاي المر، وبعد ذلك أخرج آلة موسيقية تشبه السمسمية أوضح لنا أنه صنعها من خشب الأشجار، ومن صفائح زيت المكن، ثم استعان بأسلاك كهربائية رفيعة ليستخدمها كأوتار. جلسنا حوله، وصار يعزف لنا عليها بنصف شفرة حلاقة، ويُنشد بعض الأغاني القبلية بصوته الأجش."

توقفت عن الكلام لحظة ثم قالت:

"ثرثرت كثيراً. ربما مللت." ثم أضافت: "لكن أريد أن أعرض عليك الصور التي التقطتها."

فتحت اللاب توب، وبحثت فيه عن الملف الذي جمعت الصور داخله، فوجدت نفسي بعد قليل صاعداً معها إلى قمة جبل موسى، متذكراً ما قرأته عن اليهود في التوراة، عن الشجرة التي تردد من ورائها صوت يهوا وهو يُنذرهم بالعقاب لأنهم عادوا إلى عبادة العجل الذهبي. تأملت وجه الأعرابي الجالس على صخرة ممسكاً بالسمسمية التي كان يعزف عليها، وأولاده الراقدين على الأرض يستمعون إلى الأنغام البدائية التي كانت تصدر عنها. وجدت نفسي محملقاً في وجوه الوبر الصخري وهي تُطل من فتحات في كتل الصخر، في السائح الهولندي وهو يلتقط لأمنية صورة لأنه كما قال يُريد أن يحمل وجهها معه عندما يعود إلى بلاده.

في تلك الليلة جاءني حلم تحولت فيه إلى طائر. حلقت في السماء فوق مروج خضراء، وواصلت الطيران لأكتشف إلى أين تمتد، باحثاً عما قد يُوجد عند الأفق الذي أراه مثل خط برتقالى اللون. في لحظة من اللحظات وصلت إلى البحر، فهبطت من عليائي، وسبحت في مياهه.

كانت دافئة، صافية. أخذت أتأمل القاع المغطى بالطحالب الداكنة تتهادى فوقها أسماك على جسمها الأبيض خطوط سوداء. خرجت من مياه البحر، ورقدت على شاطيء رملي تحت الشمس، ثم فجأة استيقظت لأجد أشعتها تتسلل إلينا من النافذة نسيت أن أغلق شيشه قبل النوم.

الفصل السابع عشر

جالس على مقعد يقرأ في صحيفة الوفد

يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ دهست سيارة للجيش الإنجليزي عدداً من المتظاهرين الذين تجمعوا في ميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير) للمطالبة بجلاء جيوش الاحتلال عن مصر، وتحقيق الاستقلال. في اليوم التالي حضر أحد طلبة كلية الطب إلى قرية كفر الحداد، وقابل جدي. أخبره وهما جالسين على المصطبة في حوش الدار أن ابنه الأصغر قُتل في هذا الحادث، وأن بعض الطلبة حملوا جثته إلى المشرحة في الإسعاف، وتركوه فيها.

توقف قلب جدي عن الدق، لكن لحظتها لم ينتبه الشاب إلى ما حدث لأن جدي ظل جالساً في مكانه دون أن يتحرك، أو ينطق بشيء، ثم مال إلى الأمام كأنه أراد أن يسند رأسه على ذراعيه ليستوعب الصدمة التي أُصيب بها، وبعدها انكفأ على الأرض.

بعد وفاته ظلت جدتي مقيمة، هى وأولادها في الدار التي تركها لهم إلى أن تُوفيت بدورها. بمرور الأيام رحل عن هذه الدار باقي أفراد الأسرة، وفي أواخر سنة ٢٠٠٨ استطاعت الحفيدة زينة أن تتفق مع شقيقاتها الثلاث على السعي لبيعها، فلجأت إليَّ بصفتي رجل الأسرة. حاولت إقناعها أنه في ظل الأزمة القائمة، وانهيار أسعار العقارات فإن حصيلة بيع هذه الدار، والقراريط الخمس المحيطة بها عندما تُوزع على أربع من الإناث وذكر لن ينوب كل منهم إلا مبلغ من المال ضئيل. لكن حججي لم تُقنعها. لذلك تفادياً لوقوع مشاكل بيني وبين شقيقاتي قررت أن أتحمل المتاعب المتعلقة بالحصول على مشتر يدفع سعراً ترضين عنه، وهى مسأله أدركت أنها لن تكون سهلة بعد أن أصبحن سلفيات متعصبات، تتعاملن معي بقدر كبير من الريبة، على الأخص لأن البيت كان لا يزال على المشاع، مما يتطلب الحصول على توكيلات منهن لأتفاوض بها مع مَنْ سيتقدم لشرائه.

فكرت أنه في البحث عن مشتر ربما أستطيع أن أعتمد على الخولي عزب البنهاوي، ارتبط بي منذ أكثر من ست وعشرين سنة بعد أن أنهى خدمته العسكرية، وعاد ليستأنف حياته في القرية. في ذلك الوقت كان أبي قد أوكل الإشراف على الفدادين الخمس التي آلت إليه بالميراث إلى أحد أقاربه، يعمل مدرساً في قرية برما المعروفة بنشاط أهلها في تربية وبيع الكتاكيت والذي نشأ عن هذا مقولة "هىَّ حسبة برما" عندما يختلف اثنان على الحساب. مع الأيام اكتشف أن قريبه هذا يقتطع لنفسه قسطاً من الخراج لا يتناسب مع الجهود التي يبذلها في الإشراف. لم يُرد أن يستغني عن خدماته خوفاً من أن يورطه في نزاعات مع المستأجرين، فقد سمع عنه أنه تخلص من خصم له باللجوء إلى أحد الأشقياء من الدلنجات أطلق عليه الرصاص وقتله.

عندما توفي أبي أردت أن أنتزع من قريبنا هذا مهمة الإشراف على الأرض وأُعطيها لغيره، أن أمهد في الوقت نفسه لمشروع الفيلم الذي فكرت في إخراجه عن كفر الحداد. سرت أختلط بالأهالي، وأُجري مع بعضهم حوارات، فقادتني خطواتي إلى بيت صغير في عزبة عطوان، مبني بالطوب اللبن كان يُقيم فيه أحد الفلاحين مع أسرته. مرت الأيام وتوثقت العلاقة بيننا فاتفقت معه على أن يتولى الإشراف على زراعة الأرض. أبلغت قريبي المدرس بأنني أرغب في مباشرة شئون الزراعة بنفسي، غير عابىء بخطاب التهديد الخالي من التوقيع الذي أرسله إليّ واصفا إياي بأنني شيوعي قذر، أمارس مهنة فاسدة فيها عُهر، وأنه سيقطع قدمي إن قاربت قرية كفر الحداد. لكن بعد أشهر قليلة اتضح أن الخولي الجديد يُعاني من مرض في القلب، فحل محله ابنه الأكبر عزب.

أثناء فترة إقامتي في القرية ظلت سلطات الأمن تُطاردني بمختلف الوسائل، وتُسلط عليّ الجواسيس بسبب الفيلم التسجيلي الذي كنت قد قمت بإخراجه عن هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ وأثارها على أجيال من الشباب، أشرت فيه أيضاً إلى مسائل تتعلق بوفاة عبد الناصر. صُودر الفيلم بسبب بعض المعلومات التي جاءت فيه، لكن أثناء هذه الفترة اكتشفت أن عزب شخص يُمكن الاعتماد عليه، ففوضته في إدارة شئون الأرض، وسلمته مفتاح البيت ليقوم بصيانته، وفيما بعد عرفت من شقيقاتي أن دخل الأرض كان يصل إليهن "على داير المليم"، وفي موعده طوال السنين التي عشتها في أسبانيا.

بعد عودتي منها كنت أقوم بزيارة البلدة بين الحين والآخر. أتصل بعزب قبل السفر لينتظرني ساعة وصولي إليها. أهبط من الميكروباص في الصباح، وأجتاز الطريق الترابي الممتد إلى جوار الترعة، سائراً على قدميّ لأجده في انتظاري، جالساً على جذع شجرة مقطوعة. يقف عندما يراني

قادماً، وألمحه طويل القامة في جلبابه الداكن، يتدلى من كتفه شال فـاتح اللون. يتقدم نحوي دون إبطاء، ودون استعجال. تلتف يده حـول يـدي خشنة، قوية، وتُضيء ابتسامته في وجهـه الأسـمر، المحـروق في الشـمس. يسبقني إلى بوابة البيت ليفتحها، ونجتاز المدك القصير الذى يفصل بـين مساحتين مزروعتين بأشجار قليلة من الفكاهة، ثـم نصـعد عـلى السـلم إلى الشرفة الأمامية. يفتح الباب، ونـدخل في القاعـة الكبـيرة ظلـت كـما هى بجدرانها العالية السـميكة، المدهونـة بـالجير، بالمقاعـد الأسـيوطي، والمائدة الطويلة تُعيد إليَّ وجوهاً كانت تجتمع حولها سـاعة الإفطـار في شــهر رمضــان، بــالكراسي الخيــزران، بــالراديو القــديم ماركــة زينيــث، والتليفون الموضوع على منضدة صغيرة قـرب السـلم الصـاعد إلى الـدور الثاني تُوجد فيه قاعة مثلها حولها غرف النوم. أتوقـف لحظـة لأستنشـق رائحة قوالب الصابون، واللبان الـدكر، وبقايـا البخـور مـا زالـت عالقـة بالجدران، رائحة رطبة مريحة وقديمة تسري في عروقى. نفتح الشـبابيك، ونُخرج كراسي الخيزران إلى الشرفة، ونجلـس لأطـل عـلى اللـون الأخضر للأشجار، على الجهنمية الصاعدة على غرفة الحـارس والراعـي للبسـتان، وعلى سماء صافية زرقاء.

يـدخل عـزب إلى المطـبخ ليصـنع كـوبين مـن الشـاي، ويعـود لنبـدأ الحـديث، هادئـاً مسترسـلاً كأنـه لم ينقطـع أثنـاء شـهور أو حتـى سـنين الفراق لا يقطعـه سـوى أصـوات في الميكروفـون تُعلـن عـن وفـاة أحـد الأعيان، أو عرس سيقام، أو بضاعة تُباع، أو قيـام الصـلاة تتخللهـا أحيانـا أبواق الشاحنات السـائرة عـلى الضـفة الأخـرى للترعـة لتُعيـد إليَّ تـوتر المدينة في بعض اللحظات.

لكن في إحدى الزيارات لم أحضر إلى القريـة وحـدي. لمحتنـي أمنيـة وأنا أخرج حقيبة صغيرة من الصندرة. قالت:

"لم تأخـذني معـك إلى قريتـك أبـداً. يبـدو أنـك تُحـب أن تسـافر إليهـا وحدك."

قلت:

"أبداً. السفر وأنت معي سيكون أجمل."

قالت:

"أريد أن أراها وأن ألتقط فيها بعض الصور، وأن أُسجل بعض حـوارات مع الفلاحين الذين يزرعون الأرض."

"إذن فلنسافر سوياً هذه المرة، لكن ماذا ستفعلين بالصور."

قالت:

"سأستخدمها في فيلم بدأت أُعد له."

"فيلم عن ماذا يا أمنية؟"

قالت:

"عن شخص اسمه عزت المرشدي."

قلت:

"لا... صحيح فيلم عن ماذا؟"

قالت:

"فيلم عنك. أُعد له منذ مدة، وقمت بالتقـاط صـور كثـيرة تتعلـق بـه، وصورتك وأنت تقوم بعمل أشياء مختلفة. ألم تُلاحظ هذا؟"

"نعم لاحظت أحياناً، وظننت أنها لمجرد تسجيل نواحٍ من حياتنـا. لكـن فيلم عني؟ مَنْ سيهتم بمشاهدته بعد أن تنتهي منه؟"

بدا عليها الضيق. قالت:

"أنت تقلل من قدرك، ومن قدري أنا أيضاً. هل تظن أنني عـاجزة عـن عمل فيلم عنك يستحق أن يُرى."

فوجئت بردها، فقلت:

"لا، ليس هذا قصدي، لكني أعتقد أن هناك أفلاماً يُمكن أن يهتم الناس بمشاهدتها أكثر من اهتمامها بمشاهدة فيلم عني."

قالت في حدة:

"هذه مسألة أنا قادرة على الحكم فيها أكثر منك. ربما لست راضياً عن الفكرة خوفاً من الطريقة التي سأتناولك بها في الفيلم."

نفيت كلامها بشدة. ظننت أنني جرحت شعورها. مع ذلك تشككت في سلامة المشروع التي أرادت أن تقوم به فأنا لست مشهوراً، وليس في حياتي الكثير مما يُمكن أن يجذب الناس إلى مشاهدة فيلم عنها. لكن صرت أقلب فكرتها في ذهني، وبمرور الوقت بدأت تروق لي. أحسست أنها تجربة ستكون ممتعة.

اتفقنا على موعد السفر. فى اليوم السابق عليه هبطت فى الصباح لأبتاع الصحف. بائع الصحف الذي كنت أتعامل معه كان يُدعى محمد، رجل قصير القامة، هادىء الملامح شابت حاجبيه، لكن ظل شعره أسود مما كان يميزه عن سائر البشر، فلم أر هذه الظاهرة في أي مكان ذهبت إليه. عرفت من محل البقالة القريب من الناصية التي كان يفرش الصحف، والمجلات، وبعض الكتب على رصيفها أنه تعدى سن الستين. كان قليل الكلام، صامتاً أغلب الوقت. لم يكن يبتسم أو يضحك، لكنه أوصل ابنه إلى كلية الطب، وابنته إلى كلية الإعلام. عندما كنت أخاطبه كان يظل مطأطيء الرأس، كأنه تعود ذلك من الحملقة في بضاعته المفروشة على الأرض. إذا سألته عن أحواله يرد بهمهمة غامضة تعني الحمد لله، ثم ينشغل بإعادة ترتيب الصحف المفروشة على ناصية الشارع. كان يحضر ساعة الفجر ليتسلم أربطة الصحف، والمجلات التي حملتها إليه سيارة التوزيع. يقوم بفكها، ورصها، ثم تبدأ حركة البيع. إذا

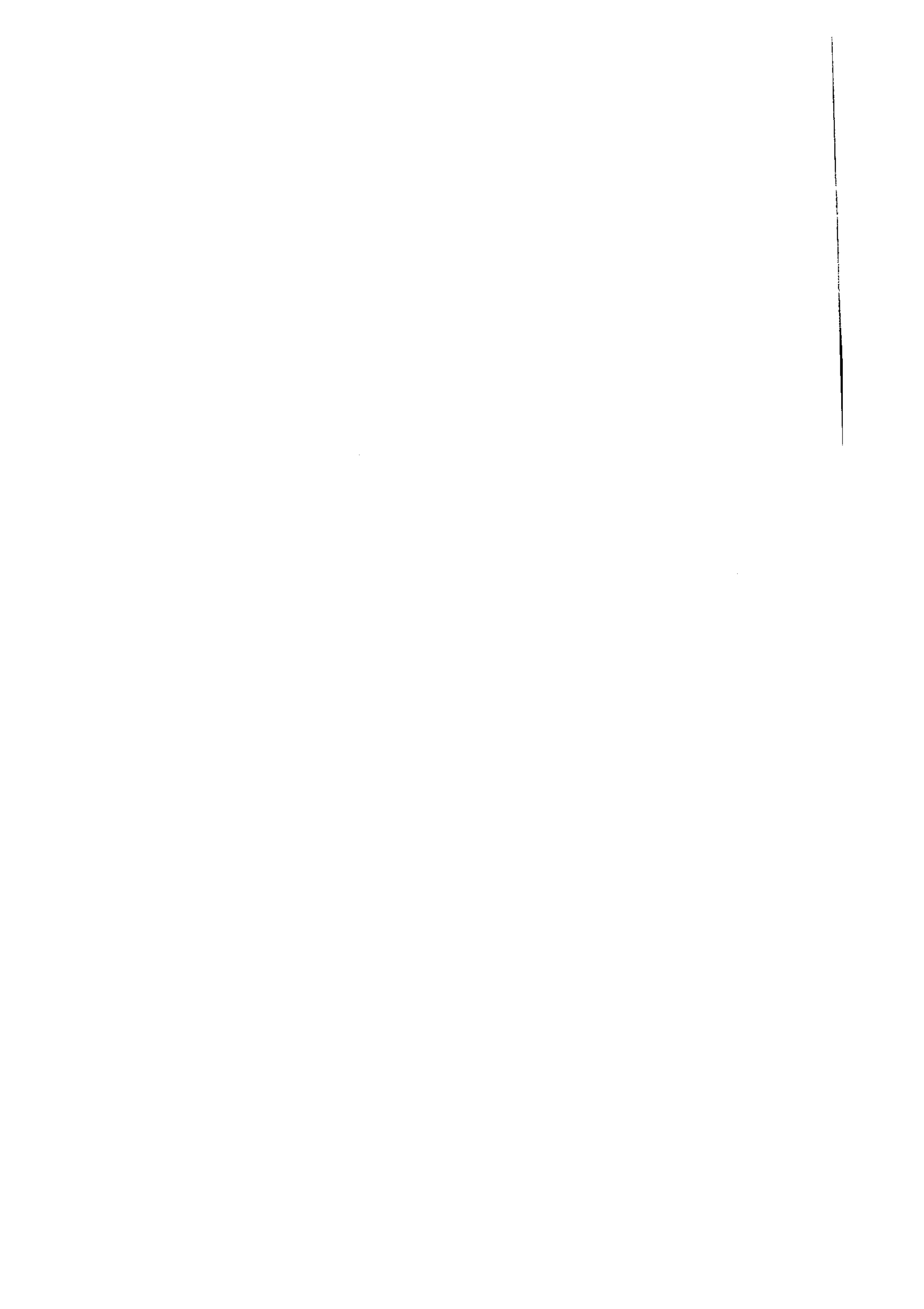
مررت أمامه قرب الساعة الثانية بعد الظهر آراه جالساً على مقعد يقـرأ في جريدة الوفد.

سـألته عـن جريـدة البـديل فـأتي بحركـة مـن اليـد تعنـي أنهـا غـير موجودة. كنت قد سـمعت أنهـا سـتتوقف عـن الصـدور لأن خسـائرها تجاوزت سـبعة عشر مليونـاً مـن الجنيهـات، وأن هنـاك ثلاثـة أشـخاص أسسوا الشركة التـي قامـت بإصـدارها. كـانوا مـن الرأسـماليين القليلـين الذين شـاركوا في نشـاط بعـض المـنظمات اليسـارية، وفي لجـان شـعبية مختلفة خلال مرحلة طويلة من حياتهم.

عدت إلى البيت حاملاً الصحف، فسألتني أمنية عـن البـديل. قلـت لها أنها غالباً توقفت عن الصدور، وأنني ربما أقوم بزيارة مقـر الجريـدة لأعرف ما هو الموقف بالضـبط. قـرب السـاعة الثانيـة بعـد الظهـر وأنـا أجتاز الشارع رأيت سيارة إسعاف واقفة قرب الناصية التي يفرش عليهـا محمد بضاعته. عندما اقتربت سمعت صراخ السـارينة والسـيارة تبتعـد بأقصى سرعتها. سألت صاحب البقالة عما جرى فقال:

"محمد كان يقرأ فى الصحيفة، ثم فجأة انكفأ على وجهه ثم ازرق. .قـال لنا رجل الإسعاف أنه أصيب غالبا بسكتة قلبية"

منذ ذلك اليوم لم أعد أرى محمدًا. عندما كنت أمر فى الشـارع قـرب الساعة الثانية بعد الظهر كنـت أرى زوجتـه متشـحة بالسـواد، جالسـة على مقعد، وفرشة الصحف على الرصـيف عنـد قـدميها، لكنهـا لم تكـن تقرأ في صحيفة الوفد، أو فى أى صحيفة لأنها كانت أميَّة لا تعرف كيف تفك الخط.



الفصل الثامن عشر

عـــــــــــزب

وضـعنا آلـة التصـوير الـديجتيال، والحامـل، ومصـابيح الإضـاءة، والحقيبتين في الخزانة الخلفية لسيارة الأجرة التـي كانـت تنتظرنـا أمـام باب العمارة، وأخذنا مكاننـا متجـاورين عـلى المقعـد الخلفـي. تحركـت السيارة، لكن بعد قليل مالت أمنية إلى الأمام وخاطبت السائق قائلة:

"صباح الخير يا أسطى. لو سمحت اطفيء الراديو."

استدار برأسه لحظة وقال:

"ده قرآن ربنا يا ستي."

قالت:

"عارفة أنه قرآن ربنا يا أسطى، لكن عايزة أسمعه في البيـت لمـا أوصـل. مش عـايزين لا أغـاني، و لا كـورة، ولا مـواعظ، ولا قـرآن. إذا مـا كـنـتش موافق ندفع اللي علينا وننزل نشوف غيرك."

صمت لحظة قبل أن يقول: "حاضر يا ست."

بعد أن هبطت بنا السيارة من الكوبري الذي يمر بقليوب خرجنا من مناطق العمران إلى عالم الفضاء الأخضر، إلى أشجار البرتقال كانت زهورها بدأت تتفتح. حلقت فى الجو شبورة رمادية كانت أجزاء منها، تُخفي معالم بيوت القرى، والمراكز التي مررنا بها، فبدت كالأشباح الغامضة المغلقة على أسرارها. أحسست أنني سابح في دنيا فيها غرابة، أنني عاجز عن التعرف عليها، رغم أننى رأيتها، مراراً، لكن الآن أحسست أنني أريد أن أسبر غوره أن أكتشف أسراره إلى أن صعدت الشمس وتبددت الغيوم، وظهرت مألوفة بتكويناتها فتبددت الحالة التى كنت سابحاً فيها. التفت إلى أمنية الجالسة في ركنها تتطلع من النافذة في صمت. قلت:

"نحن كالعاشقين الهاربين من المدينة دون أن نعرف إلى أين؟"

ضحكت في سرور وقالت:

"إلى كفر الحداد تلك البلدة التي لا أعرفها لأنك لم تقل لي عنها شيئا، عن الموجودين فيها رغم أنك منها"، فصرت أحكي لها عن أشياء أخذت تتحرك فى ذهنى مع دوران العجل فوق الطريق كأنها كانت تقربنى منها، وتجعلها حيَّة في ذهني، عن جدي كيف مات جالساً على المصطبة عندما جاء نبأ وفاة ابنه الأصغر، طالب الطب، الابن الوحيد الذى لم يرفع عليه صوته، والذى كان يُجلسه أمامه على الجحشة عندما يذهب إلى حقله. حكيت لها عن فطائر ستي عيشة، ويدها تربت على رأسي عندما تسهر إلى جوار سريري لأنني مريض، ولا تُبارحه إلا لتخطف ساعات قليلة من النوم، عن عينيها الصغيرتين الذكيتين كانتا تنقلان إليَّ رسالة لا أعرف كنهها ومع ذلك تُبددان الشعور بالوحشة الذي لازمني وأنا طفل. حكيت لها عن الأرض، وعن الفلاحين الذي يعيشون في بيوت العزبة، عن الفدادين التي انتقلت ملكيتها من جيل إلى جيل ولم يبق

منها الآن سوى خمسة فدادين، عن الخولي القديم كيف كان يضحك كالطفل، ثم يتحول في لحظة إلى رجل مستعد للقتل، فيحط على ملامحه جمود بارد يُحولها إلى سطح أخرس لا يقول شيئاً، عن عزب الذي تولى بعده الإشراف على زراعة الأرض وعلى بيت الأسرة الذي أقيم فيه عندما أزور البلدة، ثم عن بناته الثمانية اللائى كن تجعلن من زيارتى له فى البيت مناسبات لا تنسى، فسألتني:

"ثمانية بنات؟ وماذا تفعلن؟"

قلت:

"لا شيء سوى الطهي، وخبز العيش، وغسل الملابس في البيت إلى أن يأتيهن العريس. رفض تشغيلهن خادمات فى بيوت الأعيان، أو أنفاراً في الغيط، أو بائعات في صيدلية، أو حانوت. قال لي "معنديش مانع إن بنتي تشتغل موظفة. حتكون جاعدة وسط زميلاتها، لكن فين العمل ده؟ كله دلوجتي بالواسطة، أو بالجرش، وكل وظيفة لها تسعيرة."

كانت تتابع ما أقوله وكأنها تستوعب ما يظهر على ملامحي، ويُسجل ما أحس به وأنا أحكي لها. قلت: "لكنه ظل حريصاً على تعليم البنات، والأولاد الثلاث الذين أنجبتهم زوجته بعد البنات. كان هذا عبئاً ثقيلاً عليه بسبب تدهور التعليم، وانتشار الدروس الخصوصية فقد أصبح مكبلاً بالمصاريف."

قالت:

"هل سيسمح لي بتصويرهن؟"

"أعتقد أنه لن يمانع. بناته جميلات فعلاً، وعندهن ذكاء نادر. ابنته شريهان قارئة أحمل لها بعض الكتب كلما قمت بزيارة البلدة. كانت تُريد أن تواصل تعليمها حتى مستوى الجامعة فقد حصلت على

الدرجات اللازمة لذلك، لكن مدرس اللغة العربية في المعهد الصناعي الذي كانت تدرس فيه طلب منها أن تأخذ معه دروساً خصوصية. اخفت هذه الحقيقة عن والدها لتُوفر عليه المصاريف، فانتقم منها وتدخل بحيث ترسب فى امتحان اللغة العربية، فأصيبت بالإحباط ولم تتقدم للامتحان مرة ثانية."

قالت أمنية:

"أعادتني هذه الحكاية إلى أيام كنت مثلها فتاة أسير إلى المدرسة وأعود منها إلى البيت سائرة على قدميَّ حتى أخفف من العبء الواقع على أبويَّ."

قلت:

"حاولت مراراً أن أقنعه بالسماح لبناته أن تعملن لكن دون جدوى. أصر عل الرفض. كان يقول: "معدتش فيه أخلاج، والبنت عندنا لا اتعلمت، ولا اتعودت تحمي نفسها. ما تعرفش تشج طريجها في الأيام اللي احنا فيها دي. الشبان بيتحرشوا بيها، وبيحاصروها بطرج وحشة، وإحنا مش ناجصين مصايب."

سألتني: "لماذا لم تنبهه إلى وسائل منع الحمل؟"

"إنه يعتبر منع الحمل حراماً. بعد أن أنجبت زوجته ثماني بنات، أنجبت له ثلاثة أولاد ذكور. سألته مرة يا عزب معقول تخلّفوا ثمانية من البنات كيف ستصرف عليهن وتجوزهن وأنت لا تريد لهن أن يعملن؟ فقال ما إحنا جبنا ثلاث ولاد في الآخر، لكن يمكن لك حج. ما هو الصبيان بيسيبوا أهلهم وما يسألوش عنهم. العيشة بجت صعبة، فهيأكلوا نفسهم ولا يأكلوا غيرهم."

قاطعتني وهى تبتسم:

"يا عزت، لماذا تقلد طريقته في الكلام؟"

ضحكت:

"لأنقل إليك الجو. ربما عندي موهبة لم أكتشفها بعد، لكني قضيت معه، ومع أسرته ساعات طويلة. عندما أزوره في البيت كنت أجده جالسًا على الكنبة مستقيم الظهر، محاطاً ببناته، تتحرك علي شفتيه بين الحين والآخر ابتسامة رجل يعتز بهذه الجوقة من البنات التي أنجبها. أشعر أنهن أقرب إلى قلبه من أولاده الثلاث. علاقته بالأولاد مختلفة طبعاً فالذكور بالنسبة إليه مصدر عزوة، مصدر فخر، لكن البنات مصدر مشاعر، مصدر دفء. يجلس صامتاً أغلب الوقت يستمع إلى الحوار الدائر، أحياناً تتردد ضحكاته مثل قبس من النور يُبدد بقايا الظلمة المحلقة في أركان الغرفة."

قالت:

"يبدو أنك ستكتب عنه."

قلت:

"ربما. تذكرت الآن أنه في إحدى المرات ذهب لاستخراج كشف الأسرة فنسي الموظف المختص أن يسجل ثلاثة من أفرادها. عندما حكى لي ما حدث ترددت ضحكاته كالينبوع تفجر فجأة من الأرض، ضحكات كأنها تقول لي تأمل حياتك جيداً. ربما تكون مخطئاً في الهواجس التي تشغل بالك طوال الوقت. أراه في ذهني وهو يميل على زرعه في الغيط أو سائراً بجوار الترعة ساحباً بهيمته وراءه، وفي عينيه تلك النظرة التي تجتاز المسافات لترى ما يُوجد في البعد. حضوره ينم عن تواضع، لكنه تواضع ممزوج بالكبرياء، وعزة النفس، تحولان بينه وبين أن تسقط دموع الألم من عينيه إزاء قساوة الحياة التي يعيشها. إنه كبرياء يكشف عن صغر مَنْ يصفون أنفسهم بأنهم النخب التي تُنير لنا الطريق. لا أشاركه إيمانه في القدر، ولا اتكاله على الرب يتنقاضان مع الجهد الذي يبذله من أجل العيش، ومع القساوة التي يُعاني منها من أجل الحفاظ

على أسرته. لكن أُقدر فيه تماسكه الذي لم ينل منه الفساد المتغلغل في عروق المجتمع. إنه رجل له منطقه النابع من ظروفه، منطق يحمي قدرته على مقاومة الأزمات، على مواجهة صعوبات يصعب على أمثالي تخيلها. مشكلة عزب وأمثاله هو أن العالم القديم، والقواعد التي تأسس عليها، انهار الكثير منها، ولم يحل محلها ما يُمكن أن يقوم مكانها."

قالت:

"صورة محزنة."

أردت أن أخفف عنها وطأة كلامي فقلت:

"ربما في حياتهم أشياء تخفف عنهم. الجو الصافي، والهواء الطلق. الأطفال في الريف غيرهم في المدينة. أنت تعرفين هذا، وسترينه في وجوههم. في المرة الأخيرة رأيت مالم أره من قبل، طيوراً ملونة ريشها أزرق، ورؤوسها لون الحنة الحمراء. ظللت أتأملها وهى تقفز من غصن إلى غصن، وفي الحقول عاد أبو قردان بعد أن أوقفوا طائرات الرش. لكن بالنسبة إليّ فأكثر الأشياء التي أستمتع بها هى جلساتي مع عزب في الغيط، نظرة عينيه وهو يتأمل أحفاده في البيت، خطه الجميل، ووجهه فيه شيء يقول: أنا لن يكسرني القهر.

قالت:

"أنت تحبه جداً أليس كذلك؟"

نظرتُ من نافذة السيارة دون أن أرد ربما لأخفي الغصة التي صعدت إلى حلقى. هبطت السيارة على المدكّ الممتد إلى العزبة. لمحت رجلاً طويل القامة يقف عند الجرن، يرتدى جلباباً داكناً، ويتدلى من كتفه شال فاتح اللون. قلت:

"هذا هو عزب. إنه ينتظرنا."

الفصل التاسع عشر

يوم أن تذكرت إيزابيل

عدنا من كفر الحداد، وبعدها تم اختيار أمنية عضواً في لجنة الأفلام التسجيلية والروائية القصيرة، فسافرت إلى الإسماعيلية في اليوم التالي، وذهبت أنا إلى حديقة الحيوانات قضيت فيها بعض الوقت. كنت أريد أن أتأمل عيون الحيوانات وأقارن بينها. لا أتذكر لماذا جاءتني هذه الفكرة، ربما كانت تتعلق بمحاولة لاستعادة بعض الذكريات أثناء الكتابة، أو لأنني أحسست بالوحدة، ولم تكن لديَّ رغبة للجلوس فى مقهى سوق الحامدية، أو البستان حيث يتجمع الكتاب.

وصلت إلى البيت قرب الساعة الثالثة بعد الظهر. كان اليوم حاراً، فبعد أن تناولت وجبة من السمك، ابتعتها وأنا عائد، سقطت في النوم. أثناء النوم توالت عليَّ سلسة من الأحلام المضطربة، عندما استيقظت كان النهار قد أوشك على الانتهاء. ظللت راقداً على السرير أحاول استرجاع الأحلام. ظل اثنان منهما عالقين بذهني. في حلم منهما كنت قد سقطت في بئر عميقة، وحولي زحام من الرجال والنساء لمحت من بينهم

شخصين غامضين، بدا لي أنهما كانا من الطلبة في كلية الآداب. المزعج في الحلم أنه كلما حاولت الصعود من البئر بوضع أصابعي في فجوات الجدران أمسك أحد من الموجودين ببنطالي، أو قدمي ليشدني إلى أسفل فأهبط فى قاع البئر من جديد. الحلم الثاني كان أكثر غرابة. أنا في منطقة صحراوية لا يوجد فيها شيء، فقط رمال تعلو وتهبط. أفاجأ بحيوان يُشبه النمر أخذ يزحف نحوي ببطء، وينظر إليَّ بعينيه الصفراوين. على ظهره قرب العنق يحمل قوقعة لولبية الشكل يُطل من فتحتها كائن رخوي يبرز من رأسه قرنان يتحركان في مختلف الاتجاهات كأن هناك ريح يدفعهما. انبعث من بينهما شيء كروي، أحمر اللون يُشبه التفاحة تشقق جلده ليكشف عن قلب أصابه العطن، ثم خرجت منه حشرة لها أرجل ، كثيرة مشعرة تعدو فوق الرمال بسرعة. تحولت الحشرة إلى حيوان صغير أشبه بالجربوع سقط في حفرة مستطيلة واختفى لأفاجأ بامرأة راقدة في قاع الحفرة ترتدي ثوباً طويلاً وتُشبه ملامحها نوران بوجهها العريض ذي العظام البارزة عند الخدين.

شغلني هذا الحلم فاتصلت بنوران في اليوم التالي لأطمئن عليها واتفقنا على أن أمر عليها بعد الظهر. جلسنا في الشرفة، ودار بيننا حديث هادىء، لكن بعد أن مر بعض الوقت سألتني عن أمنية، وبدأت تلومني بطريقة عنيفة، ومهينة، فقمت وأسرعت بالخروج من باب الشقة، وهى تلاحقني بالشتائم صارخة بأعلى صوتها.

عدت إلى شقة الدقي مرهقاً للغاية شاعرًا بشىء مثل قبضة اليد تضغط على قلبى. مددت جسمي على الكنبة واضعاً وسادة صغيرة خلف رأسي. استمر الألم فى الجزء الأسفل من القفص الصدري، وشعرت بقلبي ينبض بسرعة مسقطاً بعض ضرباته بين الحين والآخر ثم زالت الحالة دون أن تستمر طويلا، لكن ظللت راقداً على الكنبة فى محاولة للنوم لم يأت،

فقمت. فتحتُ أدراج المكتب وأخذت أقلب في الأوراق، ثم أغلقتها كأنني كنت أريد أن أشغل نفسي. ذهبت إلى المطبخ وصنعت قدحاً من الشاي الأخضر، وساندوتش من الجبن أكلت نصفه، وتناولت الأدوية الموسعة لشرايين القلب، وقرصاً صغيراً من دواء التارج المخفض للضغط. أضأت التليفزيون ثم أغلقته. وضعت إسطوانة مدمجة في جهاز التسجيل فجاءتني أنغام الخوتا، والفلامنكو فصرت أستعيد أياماً سافرت فيها إلى أسبانيا. كنت قد التحقت فيها بالمعهد القومي للسينما، وبعدها بقليل انضمت إليه امرأة شابة في العقد الثالث من العمر، سمراء سمار الغجرية وعيناها يتغير لونهما من البنفسجي إلى سواد الليل عندما تغضب. كانت كالشعلة، مندفعة، مثل رقصة الفلامنكو التي حاولت أن تُدربني عليها أياماً متتالية لكن خطواتي الخشبية رفضت أن تستجيب لجهودها. علمتني أن الجنس ليس أخذاً وإنما عطاءً. كانت جميلة محاطة بإعجاب الكثيرين، وكنت أتساءل تُرى ما الذي وجدته في لتنجذب إليّ. ربما كانت براءة الشاب الخام الآتي من كفر الحداد، وفكره الساذج. أشياء جديدة عليها لم تجدها في الشباب الذين تصادفهم في الأوساط التي تتحرك فيها. بعد أن تخرجت من المعهد قامت بدور مهم في فيلم أخرجه مانيولو أراجان، وأصبحت مشهورة، ثم تبعتها بأدوار آخرى كان لها صدى عند جمهور المشاهدين، بينما ظللت أنا كاتب سيناريو مغمور، لم أحقق شيئاً له قيمة. مع ذلك عشنا سوياً لمدة سبع سنين، لكن بدأت تعترضها المشاحنات بسبب الغيرة التي أحسست أنا بها دون أن أكون واعياً تماماً بما يعتمل في نفسي، لكن أيضاً لأن شخصيتها كانت تفرض عليّ نمط حياتها، وأصبحت تتشاحن معي لأتفه الأسباب. في إحدى المرات، ونحن نتناول الغداء في مطعم للسمك إلى جوار البحر قلت لها ضاحكاً إن أسباب حبها لي، مثل لون عينيها غامضة. قالت جذبتني إليك المرأة الموجودة فيك فغضبت،

وقلت لها إنها تميل إلى السحاقية، وتستخدم علاقتها بي للتستر على علاقاتها مع النساء. علا صوتها وهى تصفني بالغبي الذي لا يفهم شيئاً، فالتفت إلينا الناس في المطعم، ولم أعرف ماذا أفعل. ظللت صامتاً، وبعد قليل دفعت الحساب وقمنا، تاركين أطباق الطعام دون أن نمسها.

في هذه الفترة كنت قد كتبت مجموعة قصصية سعيت لإصدارها في دار للنشر إسبانية، تُصدر بعض الكتب باللغة العربية، وهناك التقيت بامرأة شابة من المغرب تقوم برسم الأغلفة. أصبحنا صديقين، ثم عشيقين، ووصل الخبر إليها. كان لديها مفتاحا للشقة التي أسكن فيها، ففوجئت بها تقتحمها كالعاصفة. دخلت إلى المطبخ، وخرجت إليَّ بسكين هددتني به، ووجهت طرفه إلى عيني. كالت إليَّ سلسلة من الألفاظ البذيئة. ضربتني بقضيب من الصلب انتزعته من منشفة مثبتة في جدار الحمام. قامت بكسر كل ما وقع بين يديها، فأصبحت الأرض مغطاة بقطع الزجاج، والفخار، وبقايا مزهرية من الكريستال كانت قد أهدتها إليَّ. هربت من الشقة، ولم أعد إليها بعدها إلا لدفع ما تبقى عليَّ من الإيجار. كان اسمها إيزابيل، وهو رغم كل شيء اسم من الأسماء التي لا أنساها، ليس بسبب ما حدث بيننا من خلاف، لكن لأنها كانت مثل رقصة الفلامنكو، شعلة يصعب إطفاؤها، فمثل هؤلاء الناس نساءً كانوا أو رجالاً لا زالوا ظاهرة نادرة، لكن بعدها صرت أتساءل تُرى لماذا يظل الفاصل بين الحب، والتملك هشاً؟

الفصل العشرون

العين المرعبة

أخذتُ قضمة من البرتقالة، فأحسست بألم حاد في أسناني الأمامية. اعتقدت أنه ألم طارىء، ففي السنين الأخيرة أصبحت تُصيبني الآلام في أجزاء مختلفة من جسمي تستمر أياماً ثم تختفي دون أن أعرف لها سبباً. مع ذلك أخذ هذا الألم يتزايد. فحصت فمي في المرآة فلاحظت أن اللثاء زادت احمراراً. قررت أن أذهب إلى طبيبي ليُعالجني، فقد بدا لي أن أحد أسناني انخلع قليلاً من جذره، فالألم كان يأتيني كلما أكلت عليه. قلت لأمنية:

"لديَّ صديق طبيب أسنان عيادته ليست ببعيدة يُعالجني منذ سنين طويلة. سأذهب إليه."

قالت:

"عندما تقوم بهذه الزيارة خذني معك. ربما استطعت أن أقنعه بأن أجري معه حواراً عن علاقته بك."

في هذا اليوم قرب الساعة التاسعة مساءاً توجهنا إلى عيادة الطبيب على أقدامنا. قالت لي ونحن سائرين: "احذر من هذا الشارع إنه مليء بالفجوات، والرصيف أسوأ، لكن الأفضل ألا نهبط من عليه." أصابني تحذيرها بالإحباط، شأن أغلب التحذيرات التي يُوجهها إليَّ الناس. شعرت أنني أصبحت مثل الرصيف، متهدم، مليء بالفجوات، لكنى لم أعلق. قبل أن نصل إلى العيادة مررنا أمام محل صغير جاءتني منه رائحة كبدة، وكلاوي يتم قليها بالبصل والبهارات، فرأيت في خيالي أطباق الجبن القريش، وحساء الخضار. حزنت أكثر على نفسي، وخطر لي أن حياتي أصبحت فاترة، مثل الطعام الذي أتغذى به.

أحست أمنية بمزاجي الكئيب فألقت إليَّ بنظرة وسألتني:

"مالك واجم؟ هل تعبت من المشوار؟"

قلت:

"أبداً. أنا على ما يرام، وها نحن وصلنا إلى مقربة من العيادة."

كانت سلالم العمارة ترتفع إلى أعلى في شكل حلزون، ضيقة عند الحاجز، واسعة عند الجدار، فصعدت على الجزء الواسع منها بحرص مسنداً يدي على الجدار. تتبّعَني ابن البواب وقال: "على مهلك يا حاج"، فلم ألتفت إليه. واصلت الصعود كأنه لم يُوجه إليَّ الكلام، فنظرتْ إليَّ أمنية وقالت: "شاب غلبان."

قلت:

"أكره البوابين، أغلبهم جواسيس، وبعضهم شبه قوادين."

لم يكن باب العيادة مغلقاً فدفعته بيدي. تردد الجرس المعلق أعلاه برنين حاد. أفسحت لها الطريق ودخلنا في صالة الانتظار. كانت جدرانها بيضاء، عارية لا يوجد عليها سوى إعلان محاط ببرواز مُذهب كُتب عليه

بالخط الفارسي الأسود كلمات تشير إلى ضرورة الاتفاق مقدماً على المواعيد. في الصالة كانت توجد مقاعد مكسية بجلد رمادي، ومنضدة وضعت عليها مجلات قديمة. عندما دخلنا لم يوجد فيها سوى رجل، وامرأة لاحظت تشابها بينهما، وبين الفئران. تساءلت إن كانا شقيقين، أم زوجين؟ ثم لسبب ما رجحت أنهما زوجان أدى القرب المستمر بينهما إلى تقارب في الملامح. وأنا أفكر في هذا دخل الممرض آتياً من غرفة داخلية تُوجد إلى جوار الباب، تسبقه بطنه الكبيرة ملفوفة في معطف أبيض أمكنه بالكاد أن يغلق عليها زرارين، تاركاً الأزرار المتبقية مفتوحة. فحصنا بنظرة ملولة، ثم اختفى وظهر من جديد ليشير إلى الزوجين بالدخول إلى غرفة الطبيب، فقامت المرأة، ومن خلفها الرجل واتجها إليها.

مر بعض الوقت، ثم خرج الزوجان. هذه المرة كان الرجل في المقدمة، والمرأة من خلفه كأنه حدث في الغرفة ما كان يستلزم تعديل الترتيب. جرى همس بينهما وبين الممرض، على أثره امتدت يد الرجل نصف المغلقة إليه لتضع شيئاً في كفه، فابتسم الممرض وخاطبني بعدها قائلاً: "الحمد لله على السلامة"، كأنه حسب علمه كنت مريضاً أو على سفر. لما تحدث إليّ يبدو أنني التفت فلاحظت وجود امرأة ثانية جالسة في الصالة تنتظر دورها. كانت منتقبة، وصارت تفحصني بإحدى عينيها سلطتها عليّ خلال الشِق المفتوح في نقابها من ناحيتي. بدت عينها متربصة، كأنها لسبب ما غير راضية عن هذا الرجل الجالس في الصالة، الذي هو أنا، فملت على أمنية. كانت تقرأ في عدد قديم من مجلة صباح الخير على أمل الاستفادة من وقتها. سألتها هامساً:

"هذه المرأة لماذا تنظر إليّ كأنها تُريد أن تغتالني؟" فردت:

"لأنها ترى فيك رب أسرة جالس إلى جوار امرأة شابة وجهها سافر، وشعرها مكشوف بينما كان من واجبه أن يقومها، أن يفرض عليها

أرتداء النقاب. أنت في نظرها شخص منحـل سـيدخلك الـرب إلى أحمـى أفرانه، بل ويحل دماءك لأي مؤمن بشرع الله."

قلت:

"تُشعرني أنها لو استطاعت لقطعت رأسي بضربة سيف."

دق جرس الباب وأشـار إلينـا الممـرض بالـدخول إلى غرفـة الكشـف فأحسست بأنني أفلت من عينها المرعبة.

الفصل العشرون

أحلام طبيب أسنان؟

كنا جالسين على مقعدين متجاورين في غرفة الكشف عندما فُتح الباب ودخل طبيب الأسنان، قصير القامة، ملفوفاً في معطفه الأبيض، ووجهه المستدير رابض بين كتفيه كأنه بلا عنق. مد يده إليَّ وابتسم فاختفت عيناه الضيقتان بين جفونه، ثم ألقى بنظرة خاطفة في اتجاه أمنية وقفت ساعة دخوله. فقدمتها إليه قائلاً:

"الأستاذة أمنية مروان، صديقة تعمل في مجال السينما، وتستعد لإخراج فيلم تسجيلي عني."

قال وهو يبتسم:

"هل سيكون مثل الفيلم التسجيلي الذي أخرجته أنت عن عبد الناصر؟ قيل لي أنه أثار حفيظة السلطات. كنت أُريد أن أراه، لكنك لم تُرسل إليَّ بنسخة منه."

قلت:

"لا أظن، فليس في حياتي أسرار تخشى السلطات على إذاعتها. أنها تأمل في عمل حوار معك."

قال:

"تُريد مني بالطبع أن أتحدث عنك."

تدخلت أمنية:

"هذا صحيح، لكني أريد أيضاً أن أصور معك جوانب من حياتك. ستكون علاقتك مع الأستاذ عزت مدخلاً للموضوع."

قال:

أنا رجل بسيط لا أجيد الكلام، ولا أنفع في التصوير."

قالت:

"من أفضل الأفلام التسجيلية تلك التي يتم تصويرها مع أمثالك من الناس. تكون تلقائية، وتُلقي ضوءاً على جوانب من الحياة لا يعرفها الناس."

هز كتفيه، والتفت إلى خزانة من الأدراج الصغيرة استخرج منها بعض الأدوات، ثم أشار إليَّ لآخذ مكاني على مقعد الكشف. سألته أمنية:

"يا دكتور هل تحضر يومياً إلى العيادة."

توقف عما كان يفعله والتفت إليها:

"في الماضي كنت أعمل يومياً ما عدا يوم الجمعة. الآن أكتفي بالمجيء إليها أربعة أيام في الأسبوع."

"وماذا تفعل في بقيّة الوقت؟"

رفع القناع الذي كان قد وضعه على الجزء الأسفل من وجهه، وقال:

"أبحث في الإنترنت. نحن نحيا في عصر يكتشف فيه العلماء كل يوم، بل في كل ساعة ما هو جديد في العلم، والإنترنت يعرض هذه الاكتشافات بأدق تفاصيلها. قد يبدو للبعض أن مجال العلم في طب الأسنان محدود، لكن هذا ليس صحيحاً. المعرفة العلمية مترابطة، وبين مجالاتها المختلفة تأثير، وتفاعل متبادل. سأعطيكم مثالاً. ربما سمعتما عن شيء اسمه خلايا المنشأ."

قالت أمنية:

"سمعت عنها عرضاً." فاستطرد:

" جسم الإنسان بكل مكوناته، بأنسجته، بخلاياه، بأعضائه نابع من خلية أصلية هى خلية المنشأ، وهى البويضة الأنثوية التي تتحد مع خلية الذكر أثناء عملية التخصيب، ثم تنقسم إلى عدد لا نهائي من الخلايا المتخصصة، لكل منها طبيعة وشكل معين. هكذا تتكون الأنسجة والأعضاء المختلفة للجسم. خلايا المنشأ تقوم في الوقت نفسه بتعويض ما يُستهلك من الخلايا أي ما تفنى منها وذلك عن طريق التكاثر، والتخصص. هكذا يتمكن الجسم، وتتمكن أعضاؤه من الاستمرار فى القيام بوظائفها. أي عطب في عضو من الأعضاء، أي تحلل للخلايا، أو فناء لها يمكن أن تقوم خلايا المنشأ بالتعويض عنه، فعندما تُوضع في نسيج أو في عضو معين، تُصبح قادرة على إنتاج خلايا من النوع نفسه."

سألته أمنية:

"هل تستخدم هذه الخلايا لعلاج أمراض معينة؟"

"إنها تستخدم الآن لعلاج مرض آلزهايمر الناتج عن حدوث خلل في بعض خلايا المخ يقضي على قدرة المصاب للقيام بعمليات تتعلق بالتفكير، أو

التذكر أو بحركة الجسم. تُستخدم أيضاً لعلاج الشلل الناجم عن إصابات في العمود الفقري، وكذلك لعلاج التليف الذي قد يُصيب عضلات القلب بسبب قصور أو انسداد التغذية الدموية التي تصل إليه."

سألته:

"هل تستخدم في علاج أمراض تُصيب الأسنان؟"

قال:

"في الأسنان يمكن أن تقوم بدور مهم لأن مشكلة الأسنان هى عجزها عن تجديد أنسجتها لتعوض عن أي تحلل، أو ضرر يُصيبها."

كان يتحدث بحماس مَنْ اكتشف عالماً مبهراً قضى على ملل الحياة الذي كان يُعاني منه، فربما من قبل لم يسأله أحد من مرضاه عن شيء يتعلق بحياته. الأفواه التي تُفتح في عيادته تعرض أسنانها، ثم تنصرف مغلقة باب الوحدة عليه. الآن انطلق لسانه في موضوع أصبح قريباً إلى قلبه. قال:

"يصنع العلم إمكاناتٍ لا يتصورها عقل. عندما أنتهي من العيادة صرت أسرع إلى البيت لكي أفتح الكمبيوتر. المشكلة هى أن استخدام هذه الوسائل العلمية يحتاج إلى مال وفير. أصبحت الصين تتاجر في توليد خلايا المنشأ على نطاق واسع، كذلك ألمانيا، لكن في كلتا الحالتين الشركات الكبرى هى التي تحتكرها، وتتحكم في مبيعاتها. لكن في الولايات المتحدة الدوائر السياسية والعلمية المسئولة تعتبر اللجوء إلى علاج الأمراض باستخدام خلايا المنشأ عملاً غير أخلاقي."

قلت:

"إنه تأثير جهات ذات نفوذ لديها اتجاهات دينية متعصبة ولها موقف مشابه فيما يخص استخدام وسائل منع الحمل. اليمين الديني في الولايات المتحدة قوى."

هز كتفيه دون أن يعلق ثم استطرد

"الاحتكار الذي تمارسه الشركات الكبرى يحرم بلادا مثل بلادنا من فرص الاستفادة منها. لذلك لا أستطيع أنا، أو غيري أن يستخدمها. إنه شيء مؤسف فالمعرفة العلمية تفتح آفاقاً واسعة للوقاية من الأمراض، وعلاجها، آفاقاً لا حدود لها، لكن من يملك المال يحتكر المعرفة، فأكتفي وأنا في ركني هذا الصغير أن أحيا في خيالات المستقبل."

نظر حوله في صمت كأنه يبحث عن شيء لا يعرف ما هو بالضبط، فسألته:

"من أين يحصلون على خلايا المنشأ."

قال:

"البويضات الأنثوية بعد أن يتم تخصيبها تنقسم إلى أثنين وثلاثين خلية فتصبح خلايا منشأ صالحة للاستخدام. المصادر الآخرى هى نخاع العظام التى يتم سحب خلايا المنشأ منه. كذلك الحال بالنسبة للحبل السري الممتد بين الطفل، والمشيمة التي يتغذى منها. لذلك أصبحت الشركات الكبرى تقوم بجمع الأحبال السرية من المستشفيات، بدلاً من أن يُلقى بها مع الفضلات وتُحرق. لكن هناك مجالات آخرى أبحث فيها، تلك التي تتعلق بالجينات، فيبدو أنه لا يوجد مرض ليست له علاقة بالجينات، كأن الإنسان يُولد وعنده استعداد للإصابة بأمراض معينة. هناك أيضاً النانو تكنولوجي. اتعرفان ما هو النانو؟"

قلت:

"قرأت القليل عنه فمعلوماتي سطحية."

قال:

" اكتشاف النانو قفزة هائلة في العلم، فهو جـزىء يسـاوي واحـد عـلى مليار من حجم الكوارك. هل يمكنكما تصور هذا الحجـم؟ في المسـتقبل، نتيجة اكتشاف النانو سنتمكن من صناعة أشـياء بالغـة الصـغر، وبالغـة الصلابة."

أنزل القناع من على الجزء الأسفل من وجهه وقال:

"هه.. سرحت، وأنتم السبب. افتح فمك يا أسـتاذ عـزت لـنرى مـا الـذي جرى في أسنانك."

سألته أمنية:

"لكن ما الذي تفعله إذن بهذه المعارف؟"

أنزل القناع من جديد وقال:

"أقوم بتدريسها لطلبة الدكتوراة." صمت لحظة ثم قال: "وأحلم."

ارتدى القناع، وضغط على ذقني حتى أفـتح فمـي، ثـم أخـذ يجـس أسناني بمورد مدبب من الصلب، ويُنقب بينها. سألني:

"ما الذي تشكو منه؟"

وصفت لـه الألم الـذي عانيـت منـه، فعـاد يجـس أسـناني الأماميـة، ويحفر قليلاً بينها، ثم رش مادة مخدرة لها لسعة في فمي وانتظـر حتـى يؤتى أثره، ثم طلب منى أن أفتح فمى واسعا، وقال:

"عندك ضرس أمامي أفلت جذره قليلاً من موضعه. اتركـه. مـع الوقـت سيقل الألم، لكن تفادى الضغط عليه."

حرك قدمه، عـلى شيء تحـت المقعـد، فسـمعت أزيـزاً. صـار يُزيـل الكلس المتراكم بين الأسنان بحفارٍ يبخ ماءً. عنـدما انتهـى قمـت. أخـرج زجاجة من الخزينة وقال:

"ضع ملعقة صغيرة من هذه المضمضة على كوب من الماء، وعندما تمتصه احتفظ بالسائل في فمك لمدة دقيقة قبل أن تلفظه. إنها مضمضة لن تجدها في الصيدليات. توقفت الشركة عن إنتاجها."

سألته ونحن نتأهب للانصراف:

"كم الحساب؟"

حملق في وجهي ثم قال:

"بسيطة. أجلها للمرة القادمة."

أوصلنا حتى الباب، شد على يدي وهز رأسه نحو أمنية وهو يبتسم ثم ودعنا قائلا "مع السلامة".

هبطنا على السلالم إلى الشارع و بعد أن سرنا مسافة قصيرة التفت إلى أمنية وقلت:

"أشعر بالجوع. ما رأيك في وجبة كباب وكفتة في مطعم العربي؟"

الفصل الحادي والعشرون

كالسائر على رمال متحركة

خرجت أمنية في الصباح، وتركتني وحدي، فجلست إلى جوار النافذة أُفصص قرون البازلاء. تراكمت الكرات الصغيرة الخضراء في الوعاء الزجاجي، فأحسست بالرضا. خطر في بالي أن الحياة في جوهرها ليست سوى سلسلة من الأفعال البسيطة، نقوم بها لنحافظ عليها، لنؤجل لحظة الموت. ملت على كرات البازلاء الصغيرة وفحصتها جيدا فقدرتي على الإبصار، وكذلك السمع تضعف بالتدريج. أجد صعوبة في التمييز بين حروف الكلمات التي أقرأها في كتاب، أو التى أسمعها وأنا أشاهد فيلماً من الأفلام، أو أتحدث مع الناس. أحتاج إلى ضوء قوي، إلى الاقتراب برأسي حتى أقرأ الكلمات. عندما تُخاطبني أمنية كثيراً ما أطلب منها أن تُكرر الكلام. تُرى إذا ما ظلت تتدهور عندي قدرة الحواس على الالتقاط هل سأستطيع أن أواصل الكتابة؟ ربما تتحول حياتي إلى القيام بمثل هذه الأعمال التافهة. اختفى الرضا الذي كنت أشعر به وأنا أتأمل التل الأخضر الصغير في الوعاء، فدفعته جانباً. درت بنظراتي حول

الغرفة، على المكتبة والكمبيوتر، على صورة لي وأنـا صـبي صـغير أرتـدي سترة من القطيفـة غامقـة، لهـا ياقـة مـن الـدانتيلا بيضـاء اللـون، عـلى العروسة الجالسة في المقعد الهزاز وعلى وجهها ابتسامة بلهاء.

قمت من جلستي، ورقدت على السريـر. مـرت ثـلاث سـنوات وأنـا أكتب في هذه الرواية. انتهيت منها عدة مرات، وفي كل مرة عدت إليهـا ثانية. أجلس على مكتبـي وأكتـب، وفي الليـل أرقـد في الفـراش وتـزدحم أحلامـي بـالكلمات والصـور. فأنـا في هـذه الروايـة كالسـائر عـلى رمـال متحركة، متردداً، قلقاً في أحيان كثيرة، واثقا فى لحظات قليلة. فـما أكتبـه ليس له جنس، وليس له اسم. يتأرجح القلم في يدي بين انـدفاع الواثـق وبطء المتشكك، فما يتولد عـن قلمـي لقـيط لا يخضـع للقواعـد، لكنـه ابني، أو بنتي يُولد قرب نهاية المشوار، وربما لـن يُوجـد مـا بعـده. أحيـا خريف العمر تحررت فيه من قيود كنت أستشـف وجودهـا عـلى نحـو غامض فليقل المشرعون ما يريدون فهو خريف مـدهش وشـفاف. تُـرى هل هو الموت يهمس فى أذنى؟ هل هو الحب؟ أم هو الأثنان معاً؟

الفصل الثاني والعشرون

مدفنك جميل

دق جرس المحمول وضعته على الرف إلى جوار الكنبة. كانت أمنية مستلقية عليها، واضعة رأسها على حجري. تقول دائماً إن هذا الوضع يُطمئنها خصوصاً عندما أقرأ لها في كتاب. جاءني صوت عزب وهو يقول:

"السلام عليكم يا سي عزت. توفى نسيبك اللواء ممدوح القرني. تعيش أنت."

سألته:

"متى يا عزب؟"

قال:

"إمبارح بالليل، مات وهو جاعد جدام التليفزيون. كان وحده في الدار. مراته كانت بايتة عند أهلها، علشان أمها مريضة، والواد اللي بيشتغل عندهم عشاه، وراح ينام في أوضته. لجوه الصبح في كرسيه ما بيتحركش.

الدفنة النهاردة بعد صلاة الظهر. حتلحج تيجي النهاردة؟ فيه معزى بالليل."

قلت:

"نعم، سأحضر الدفنة، سأبحث عن سيارة بيجو تحملنى إلى الكفر. انتظرني عند الفرن ساعة الضهر. إذا اتأخرت أنا اسبقني على الجامع."

ارتديت ملابسي بسرعة وابتلعت قدحاً من الشاي وبيضة في ربع رغيف من الخبز أعدته لي أمنية، وهبطت من الشقة لتحملني سيارة للأجرة أحضرها حارس العمارة. حضرت الدفنة ثم في المساء توجهت مع عزب إلى سرادق العزاء أُقيم أمام دار المتوفي في الشارع المتفرع من الطريق الممتد إلى جوار الترعة. كان قد حرص أغلب سكان كفر الحداد على الحضور، فازدحم السرادق بالمعزين. وقفت أتلقى العزاء مع أقاربه، ثم جلست أستريح على مقعد قرب الباب. كانت ليلة صافية، فأخذت أتأمل ضوء القمر يتحرك على سطح الترعة كانت تنحني على مسافة قصيرة من مكان الصوان. بمرور الوقت تسرب أغلب المعزين، ولم يبق إلا أصدقاء وأقارب المتوفى جلسوا في انتظار تلاوة الربع الأخير قبل أن يتفرقوا هم أيضاً في حواري القرية و بقيت أنا وثلاثة آخرين من رجال الأسرة.

تذكرت وأنا جالس معهم الحديث الذي جرى بيني وبين نسيبي عن حالة جبانة الأسرة، والتدهور الذي أصابها، اقترح أثناءه أن أمر عليها فربما رأيت أن هناك ضرورة لإجراء بعض الإصلاحات فيها، فقد حان الوقت، كما قال، أن أبني لنفسي قبراً يليق بي.

عدت إلى القاهرة ومر شهر على هذا الحديث بعده سافرت إلى البلدة من جديد. تذكرت الموت المفاجيء لقريبي اللواء. كان يتمتع بصحة جيدة، وكان رجلاً نشيطاً يقضي أغلب وقته في الهواء الطلق سائراً

على قدميه في الفدادين الممتدة لأراضيه، أو راكباً جراراً صغيراً اشتراه لـه أحد أصدقائه كان قد هاجر إلى هولندا وازدهرت أحواله. عندما وصلت إلى البلدة كان ينتظرني عزب جالسا مع الحـارس عـلى حصـيرة فى حـوش الدار تحت شجرة للتوت. قاما ليسلما على. بدا لي أن عـزب فقـد الكثـير من وزنه، فقد أصبح جلبابه واسعاً عليه، وبرزت عظام وجهه عـلى نحـو ملحوظ، فانزعجت، لكنه قال رداً على سؤالي:

"شوية برد طولوا معايا. الحمد لله بجيت كويس دلـوجتي. لكـن يـا سي عزت ليه غبت عنا الغيبة الطويلة دي؟"

قلت:

"أين هى الغيبة الطويلة؟ منذ شهر جئت لأحضر معزى المرحوم اللـواء ممدوح."

"صحيح، بس جعدت يوم واحد علشـان تـحضر العـزى وسـافرت عـلى طول. هو أنت نسيتنا ولا إيه؟"

قلت:

"أنساك إزاي يا عزب. إنت تعرف معزتـك عنـدي. لكـن قـل لي صـحيح لماذا فقدت الكثير من وزنك؟ منظرك لا يُطمئن."

"إن جيت للحجيجة الظروف مش مسعدانا. كل حاجة غليت، والزراعة مش جايبة تمنها، وأنا الشهر اللي فـات ده جـوزت شـيرين. لكـن نشـكر ربنا أهي شـدة وتـزول. حبيـع بجـرتين وأخـلي الجاموسـة وبيجولـوا إن البطاطس هتتصدر السنة دي."

سألته:

"هل يُمكن أن أساعدك في شيء؟"

ابتسم وقال:

"شايلك للعوزة يا سي عزت. بس أوعى تبيع حاجة من الأرض. الأرض هى اللي باجية. كلم إخواتك، همَّ هيعملوا إيه بالفلوس. آني عندي فدان ونص، يمكن أبيع البجرة، لكن أرض لأ."

قلت:

"ولماذا تُريد أن تبيع البقرة؟"

قال:

"أصل شريهان جالها عريس، وهاستنى شوية، لكن لازم أعمل حسابي. لو ما سدتش الناس هتجول عليَّ إيه؟"

قلت:

"على مهلك يا عزب، خطوة خطوة. لا ترهق نفسك. لكن قولي همَّ كل بناتك أسمائهن تبدأ بحرف الشين؟"

قال:

"إيوه، دا أصله يسهل على الواحد لما يجي يختار الاسم. عندي شيرين، وشاهيناز، وشاهندا."

" لكن لا توجد بينهن واحدة إسمها شهرزاد؟"

"لا.. شهرزاد لا. اسم ما بأحبوش.. بيجيبوه في التلفزيون والناس تجعد تجول عليه كلام. وكمان مش اسم فلاحي."

قلت:

"ياعزب وهو شاهندا وشريهان وشيرين أسماء فلاحين؟"

ضحك ثم قال:

"والله معاك حج. هو الواحد برضه بيتأثر باللي بيسمعه من الناس اللي أعلى منه، اللي فوج دول، أسياد البلد."

"ياعزب أنت عقلك أحسن من ناس بيقولوا عن نفسهم إنهـم مثقفـين. هذه الحقيقة من أين جاءتك؟"

قال:

"مـن العيشـة يـا سي عـزت. مـا هـي بـتخلي الواحـد يفكـر برضـه في حاجات."

قلت:

"أنت تعرف يا عزب كلامك هذا قالوا رجل إيطالي كان اسمه جـرامشي. ألف كتاباً قال فيه إن أغلب أفكارنا تأتينا من الطبقة التي تحكمنا. أيـام موسوليني سجنوه لمدة أربعين سنة. هل سمعت عن موسـوليني؟ أظـن أنك كنت صبياً في هذا الوقت."

"لا، مـا سـمعتش عنـه. زي مـا جلـت يمكـن كنـت لسـه صـغير أو مـا اتولدتش. لكن الله يخرب بيتـه، أربعـين سـنة! حـط الراجـل في السـجن أربعين سنة! لكن سيبنا من الكلام ده يـا سي عـزت. إنـت أخبـارك إيـه؟ والست أمنية إزيها؟ البنات بيسألوا عنها، وبيجولوا مـا بتجبهـاش معـاك ليه ؟"

"المرة القادمة يـا عـزب. هـذه المـرة جئـت وحـدي لأرى حـال الجبانـة. سمعت أنها أصبحت في حالة سيئة."

"الجبانة؟! إيه اللي فكرك بيها دلوجتي؟ ربنا يـديك الصحة، ويطـول في عمرك. داني بأفرح لما بشوفك. لكـن أهـو برضـه لازم الواحـد يفكـر إنـه مش عايش علطول."

"متى مررت على الجبانة يا عزب؟"

"الحجيجة ما روحتش هناك بجالى مدة. أنا واخد بالي من البيـت لكـن الجبانة..." نظر حوله ثم أضاف: "مش شايف إنه البيت كويس؟"

"نعم فعلاً كويس. واضح إنك تأتى هنا بانتظام. لكني أُريد أن أمر على الجبانة لأرى حالها."

قال:

"لو عايز نجدر نجوم دلوجتي نروح نشوفها. المفتاح مع الولية أم خميس. فاكره؟"

"لا، الحقيقة أنني لا أذكره."

"دا ابن سويلم عطا الله اللي كان مأجر فدان من المرحوم أبوك."

" تذكرته الآن. هيا بنا حتى لا أتأخر في العودة إلى مصر."

"بسرعة كدا. ما تخليك تتغدا معانا، وتبات الليلة؟"

"لا، مرة ثانية".

خرجنا من حوش الدار، وسرنا في عكس اتجاه الترعة، ثم اتجهنا جنوباً عند طرف القرية. على يميني امتدت الحقول، وعلى اليسار اصطفت البيوت صغيرة، متلاحقة. انحرفنا في حارة، وتوقفنا أمام بوابة كبيرة من الخشب فيها شقوق، وتعرت من الطلاء الرمادي القديم. قال عزب:

"هاروح أجيب المفتاح. الولية ساكنة هنا جريب."

عاد بعد قليل حاملاً في يده حبلاً من التيل تدلى منه مفتاح كبير صديء. أدخله في ثقب الباب، وأداره عدة مرات، ثم رفع ترباساً من الخشب يمتد بين الضلفتين. فتح ضلفة منهما بدفعة من كتفه، فصدرعنها أنين صارخ. دخلنا إلى حوش الجبانة، درت بنظراتي حولها. كانت الأرض مغطاة بطبقة مملحة احتلت فيها بركة مياه آسنة مساحة كبيرة فيها، وصعدت منها أعواد تشبه البوص، وحشائش كثيفة. عند طرف الحوش خلف حاجز منخفض كان يُوجد امتداد ارتفع فيه قبران كبيران كانا قد دُفن فيهما جدي وجدتي. القبران مدهونان بطلاء زهري

فاتح اللون تلاشى أغلبه، كاشفاً عن مساحات من المصيص الأبيض، والطوب اللبن. على الأرض زحفت خنافس، وصراصير كبيرة، مُجنحة، طار أحدها عندما اقتربنا. رفعت نظراتي إلى السقف فلمحت بُرصاً يُطل برأسه. حملق فينا بعينيه الصغيرتين، ثم اختفى.

ألقى إليَّ عزب نظرة فيها اعتذار، ثم قال:

"أصل الجبانة جديمة جوي."

سألته:

"هل يُمكن ترميمها؟"

قال:

"ممكن، بس هتتكلف." صمت قليلاً ثم أضاف: "الأول لازم نردم الأرض بعربيتين ثلاثة ردش، علشان النشع ده، وبعدين نبني السور، والجدران في الحتت اللي وِجع فيها الطوب. ما أعرفش يُمكن نحتاج كمان حاجات تانية، بس ده هيتكلف برضه. أصلها حاجات جديمة جوي وما حدش جرب لها من زمان. هو أنت عايز تبني فيها حاجة لك؟"

قلت:

"يمكن يا عزب. هو لو أقمت قبراً لي ماذا ستكون تكلفته؟"

فكر قليلاً ثم قال:

"يتوجف أنت عايزه يبجى جد إيه ويتبني بإيه. يعني من ألف لألفين جنيه كده."

"لكن ليس أكثر؟"

"والله ما أعرفش. ده حسب اللي أنت عاوزه."

قلت:

"سأفكر في الموضوع، وأتصل بك إن قررت شيئاً."

قال:

"تحت أمرك. ربنا يطول في عمرك."

بعد أن عدت إلى القاهرة قررت أن أبحث عن مدفن في المدينة، بدلاً من ترميم جبانة البلدة. سيسهل إجراءات الدفن، والزيارة إن قرر أحد أن يزورني وأنا تحت الأرض. علمت من أحد حراس السوبر ماركت الذي أبتاع منه ما أحتاج إليه، أن عند أطراف مدينة ٦ أكتوبر، بالقرب من الطريق السريع الذي يقود إلى الواحات البحرية، توجد منطقة خصصت لإقامة المدافن، بعد أن ازدحمت مدافن المدينة، ونُقلت إلى طريق السويس، وإلى أماكن آخرى خارج المناطق السكنية. توجهت إلى المكان الذي أشار إليَّ به الحارس، وهناك التقيت برجل اسمه عبد الناصر سليم أسس هو وشقيقه شركة تملك مساحة من الأرض في هذه المنطقة، يقومان فيها بإقامة مدافن من أحجام، ومستويات مختلفة، وفقاً لشروط مالية يتفق عليها مع مَنْ يرغب فى إقامة مدفن له. زرته في مكتبه، واتفقت معه على إقامة أصغر، وأبسط مدفن يُمكن بناؤه، وعندما وقعنا على العقد دفعت أول قسط، على أن أسدد القسط الثاني عند استلام المدفن أي بعد ثلاثة أشهر. عندما انتهت عملية البناء قام الحارس المُوكل إليه حراسة هذه المنشآت بزراعة الحوض الممتد في واجهة المدفن بجهنمية لون "دم الغزال"، وشتلات من الصبار تُعطي زهوراً صغيرة قرمزية اللون اسمه صبار إسرائيلي، وشجرة فيكس.

يوم أن زرت المدفن لأسدد مصاريف الصيانة كانت فروع الجهنمية الحمراء تصعد على الجدار. فتح لي الحارس الباب، وأدخلني إلى غرفة مفتوحة للسماء أرضيتها من الأسمنت، تهبط منها سلالم إلى

قبو. كان القبو منقسـماً إلى جـزئين أحـدهما عـلى اليمـين، والآخـر عـلى اليسار. أشار الرجل إلـيهما قـائلاً: "هنـا بينـدفن الرجالـة، وده للحـريم، فخطر في بالي أنني أفضل الجـزء الموجـود في اليسـار المخصـص للحـريم. هبطت في القبو لأرى أين ستتوارى جثتي عندما يأتي الآوان. كان عميقـاً ومظلماً لا تصل إليـه الشـمس. اسـتمعت إلى الحـارس وهـو يقـول مـرة ثانية: "هنا الرجالة وهنا الحريم" دون أن أسـأله مَـنْ الـذي حـدد هـذا النظام للتخصيص، ثم خرجت من باب المدفن. كانت أمنية واقفة أمامه رافعـة رأسـها قلـيلاً لتتأمـل المبنـى بنظـرة فاحصـة، هاربـة. وقفـت إلى جوارها فقالت بصوت خافت: "مدفنك جميل."



الفصل الثالث والعشرون

أشياء لم يشملها البتر

دق جرس الباب ففتحته. على العتبة كان يقف رجل أصلع يرتدي سترة طويلة كاكية اللون، وبنطالاً أسود. مسح نقاط العرق من على وجهه بمنديل أخرجه من جيب السترة، ثم فتح الحقيبة القديمة المهترئة التي كان يحملها. قال:

"السلام عليكم، حضرتك الأستاذ عزت المرشدي؟"

قلت:

"نعم."

اقترب مني قليلاً وفحصني بعينيه شاب بياض إحداهما احمرار، وخيط رفيع هلامى يزحف من الركن ثم قال:

"بطاقتك لو سمحت. أنا مُحضر جئت من المحكمة لأسلمك إنذاراً."

أخرجت حافظة نقودي، وسحبت منها البطاقة. قلبها، وأعادها إليَّ ثم أخرج ورقتين من الحقيبة، وقلما جافا لونه أزرق وأعطاها لي ثم أشار إليَّ بالتوقيع على ورقة منهما قائلا:

" هنا لو سمحت." وقَّعت، فأخذ مني القلم والورقة التى وقعت عليها وظل واقفاً، ثم قال:

"أتسمح لي بكوب من الماء."

ذهبت إلى المطبخ وأحضرت له كوباً من الماء. شربه بسرعة وهو يكركر. أعاد إليَّ الكوب وقال: "السلام عليكم." ثم استدار ليضغط على مفتاح المصعد. انتظرت حتى هبط به، ثم أغلقت الباب، وعدت إلى الغرفة التي كنت فيها. جلست على الكنبة الموضوعة في الركن. رفعت شيش النافذة إلى أقصاه. وارتديت نظارة القراءة ثم قرأت:

"بناءً على طلب الدكتورة نوران منصور، ومحلها المختار مكتب الأستاذ حمدي السنهوري أنا محضر محكمة شمال القاهرة انتقلت إلى حيث إقامة الأستاذ عزت المرشدي وأنذرته بالآتي:

المنذر إليه زوج المنذرة بموجب العقد الشرعي المؤرخ ١٠ ديسمبر ١٩٧٧ واستمرت الحياة الزوجية نحو خمسة وعشرين سنة يسودها الحب والتفاهم ولكن المنذر إليه بعد أن اقترب من سن التسعين ظهرت عليه أمراض غريبة لم تظهر عليه طوال العقود الطويلة الماضية، ومن هذه الأمراض هجر بيت الزوجية، ومصاحبة نساء لسن فوق مستوى الشبهات مما أوقع الزوجة المنذرة ذات الشخصية المعروفة في المجتمع في حرج بالغ. رغم النصح وتدخل الأصدقاء فإن المنذر لم يتراجع عما هو منخرط فيه الأمر الذي يدعو إلى التدخل لحمايته من نفسه أولاً، ثم من الآخرين ثانياً. إن إقامة المنذر إليه منذ عدة أعوام مع امرأة اسمها أمنية مروان، تصغره بخمسين عاماً، واستمرار هذه المرأة في استنزافه صحياً ومادياً هو أمر لا يُمكن السكوت عليه، علماً بأنها جمعت بينه وبين رجال آخرين. لقد بلغ به الضعف أن سيطرت عليه هذه المرأة تماماً.

أنا المحضر سالف الذكر قد سلمت المنذر إليه صورة من هذا الإنذار ونبهت عليه بتعديل أوضاعه، والقيام بواجباته الزوجية، والبعد عن جميع التصرفات التي لا تليق بمثله، وذلك في ظرف سبعة أيام من تاريخه، وإلا اضطرت المنذرة لاتخاذ الإجراءات القانونية الكفيلة بوضع الأمور في نصابها الصحيح، مع حفظ جميع حقوق المنذرة الأخرى."

قرأت الإنذار مرة ثانية ثم وضعته في درج المكتب. كانت أمنية قد أعدت لي وجبة خفيفة قبل أن تذهب إلى مكتب المونتاج. لم أتناولها. تملكني الإحساس بأن أمراً مصيرياً حُسم، ولم أعد إلى حاجة للتفكير فيه. أجريت اتصالاً تليفونياً بعده رقدت على السرير محملقاً في السقف وفى ذهنى صور متلاحقة لا رابط بينها إلى أن جاءنى صوت طفلة الجيران تصرخ على بسطة السلم "سيبوني يا ماما"، فقمت. اغتسلت وبدلت ملابسي. قرب الساعة الثامنة والنصف مساءً هبطت من الشقة، وركبت في سيارة للأجرة، حملتني إلى حارة متفرعة من شارع المحطة بالجيزة. اوقفت السيارة عند الناصية وسألت أحد الجالسين على مقهى عن العنوان الذي كان معي. طرد أنفاساً من الشيشة التي كان يشد عليها بين شفتيه، وتملكته نوبة من السعال، ثم قال: "جوا الحارة، ثالث بيت على الشمال." دفعت أجرة السيارة وسرت على قدمي فوق المسافة القصيرة إلى البيت الذى أشار إليه، متفادياً بركة كادت أن تسد الشارع. أخرجت الورقة التي سجلت عليها العنوان وحملقت فيها تحت ضوء كان ينبعث من مكان ما، لأتأكد مرة أخرى من العنوان، ثم دخلت من باب البيت. تحسست طريقي في طرقة مظلمة إلى حوش داخلي مبلط في الدور الأرضي كان مُحاطاً بعدد من الغرف أبوابها مفتوحة. لمحت امرأة كانت تجلس خلف مكتب، وتُحملق في الفراغ، وهي ممكسة بقلم فسألتها عن مكتب المأذون. أشارت إلى غرفة تقبع في ركن الحوش.

اقتربت منها وقرأت اللافتة النحاسية المثبتة على الجدار إلى جوار الباب كان مفتوحا هو أيضا ثم دخلت. خلف مكتب صغير في الغرفة النظيفة المبطنة بالخشب اللامع كان يجلس رجل يرتدي جلباباً أبيض وطاقية مخرمة، ويُمسك في يده بسبحة من العاج، أطلت عيناه الصغيرتان إليَّ من خلف زجاج النظارة. عندما دخلت قام ليشد على يدي وقال:

"أهلاً وسهلاً تفضل." فجلست على مقعد أمامه. قلت:

"أنا عزت المرشدي، اتصلت بك في الصباح، واتفقنا على أن أحضر إليك في الساعة الثامنة والنصف مساءً، فجئت حسب الميعاد."

قال:

"أنا فاكر"، ثم حملق في لحظة طويلة قبل أن يسأل: "هل أنت مُصر على قرارك؟ ألا تُوجد فرصة للتصالح، للتفاهم؟"

قلت:

"لا.. حاولنا كثيراً دون جدوى." تنهد ثم أخرج من درج المكتب قلماً، وبعض الأوراق، ودفتراً. قال:

"لو سمحت يا أستاذ، اعطني بطاقتك القومية، وقسيمة الزواج."

تناولهما مني ثم أخذ يسألني ويكتب. في هذه الأثناء دخل اثنان من الرجال في الحجرة أحدهما ملتح يرتدي قفطاناً، والآخر بدا لي أقرب إلى المدرس في بزته الرمادية، ورباط عنقه ذي المربعات الزرقاء. قال صاحب القفطان: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،" وجلس على كنبة جلدية. تبعه الرجل الثاني دون أن يقول شيئاً. بعد أن انتهى المأذون من سؤالي طلب منهما التوقيع على الأوراق، فوقَّعا، وانصرفا كما جاءا. وضعت توقيعي في الدفتر، ودفعت الأجر. أعاد إليَّ المأذون البطاقة، ولما سألته عن قسيمة الزواج قال:

"لا.. القسيمة ستبقى معي لإتمام الإجراءات. ورقة الطلاق التي تخصك ستصلك بعد عشرة أيام. أما زوجتك فسيتم إخطارها بعد أربعة أو خمسة أيام، ثم تتسلم ورقة الطلاق بعد شهر."

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والربع عندما خرجت من الممر إلى الشارع. خمسة وأربعون دقيقة انتهت فيها علاقة عمر، انتهت فيها الحياة المشتركة التى بنيناها أنا ونوران خطوة بعد خطوة خلال السنين. عملية بتر بلا ألم، لكن كان الألم ينتظر فهناك أشياء لم يشملها البتر ستظل كالجرح المدفون في أعماق الجسم.



الفصل الرابع والعشرون

كان يرتدي قميصاً أحمر

الشارع ضيق، يصل بين شارعين رئيسيين في وسط المدينة لا تتوقف فيه الحركة. هبطنا من سيارة الأجرة أمام باب العمارة. حملق فينا البواب بعينين كادا أن يختفيا بين تجاعيد الوجه الأسمر العجوز، سألني:

"عايز مين؟"

قلت:

"الأستاذ عبد الحميد الضمراني المحامي."

قال:

"الدور الثاني في الباب اللي على شمالك لما تخرج من الأسانسير وأقفل الباب وراك كويس لما تطلع."

كانت العمارة من العمارات التي أقامها الأوروبيون منذ سنوات. جدرانها سميكة، وأسقفها عالية. صعدنا السلالم الرخامية البيضاء القليلة إلى المصعد. في الدور الثاني وجدنا لافتة مكتوباً عليها الاسم، وأعلاها

سهم أحمر يُشير إلى طرقة قصيرة على اليسار. سرنا فيها لنجد أمامنا باباً متيناً يلمع لونه البني الداكن في ضوء المصباح الفلورسنت المعلق فوقه. في النصف الأعلى منه شُراعة من الزجاج محمية بقضبان حديدية سوداء. جو يُوحي ، بالعراقة فى المهنة ، بأن الخدمة التي نبحث عنها ستكون غالية الثمن تُدفع دون نقاش.

ضغطت على جرس الباب فسمعنا أزيزاً كالنحلة انفتح بعدها. في المدخل وجدنا مكتب استقبال استقرت وراءه امرأة سمينة قليلاً، بشرتها بيضاء، ترتدي بلوزة تسقط طرفي ياقتها العريضة على صدرها. بدت لي نموذج المرأة التي تعودت العمل في مثل هذه المكاتب. سألتها عن الأستاذ عبد الحميد الضمراني، مُوضحاً أن هناك موعداً تحدد لمقابلته في الساعة التاسعة مساءً، فسألتني: "اسم حضرتك؟" قلت "عزت المرشدي، والأستاذة أمنية مروان."

رفعت سماعة التليفون، وهمست فيه ببضع كلمات، ثم قامت وقادتنا إلى غرفة عند نهاية ممر على جانب منه أبواب مغلقة. في الغرفة أريكة ومقعدان من الجلد، ومكتبة واجهتها من الزجاج تحتوي على بعض المجلدات السميكة، ومنضدة اجتماعات مستطيلة محاطة بمقاعد ظهورها عالية يُوحي خشبها العاري الداكن بالصرامة.

جلست على الأريكة، واضعاً الصحف التي كنت أحملها إلى جواري، وأخذت أمنية مكانها تحت النافذة العالية المغلقة، جالسة على طرف المقعد، كأنها ستُواجه امتحاناً لم تألف مواجهته. المكان غارق في الصمت، تصل إليه بالكاد أصوات متفرقة من الشارع، يُوحي جوُّه بأن هنا لا مجال للضحك، لا مجال لأي شيء سوى القرارات المصيرية، فألقيت إلى أمنية بابتسامة مشجعة، وغمزت لها بعيني، فردت على محاولاتي بابتسامة سريعة واهنة، وفي هذه اللحظة فُتح الباب المغلق،

ودخل رجل قصير القامة يرتدي قميصاً أحمر تـدلى تحـت خصره خـارج البنطال الداكن اللون. الوجه الذي أطل علينا كان ممتلئـاً مثـل الجسـم، عيناه صغيرتان، ذكيتان توحيان بالحيوية الكامنـة وراء نظـراتهما. تحـت الأنف الأفطس شارب أسود منفوش يعلو فمه العـريض، ويكـاد يخفيـه. توقف لحظة عند البـاب، وفحصـنا بنظـرة حـادة، ثـم أقـدم قـائلاً أهـلاً وسهلاً، فقمت لأشد على يده الممدودة، وقدمت لـه أمنيـة. أخـذ مكانـه عـلى المقعـد الجلـدي إلى جـواري وأنـا مفاجـأ قلـيلاً بـالقميص الأحمـر، وبوجهه كان فيه شيء طفـولى. التفـتُّ إلى أمنيـة كـأننى أدعوهـا لتبـدأ بشرح السبب الذى من أجله جئنا، فقالت:

" ابدأ أنت، وإذا كان لديَّ كلام سأضيفه بعد أن تنتهي."

هبطنا من مكتب المحامي بعد ساعة. كنت مرتاحاً لما دار فى اللقاء. كانـت أسـئلة الرجـل محـددة، ودقيقـة تـدل عـلى الخـبرة وعـلى حـس بالاعتبـارات التـي يجـب مراعاتهـا فى القضـية التـى نريـد رفعهـا ضـد الصحف.أما أمنية فكانت متوترة للغاية. سرنا وسط الزحام حتى ميـدان التحرير لنستقل أحد الميكروباصات المتجهة إلى مدينة زايد. همست لها ونحن في السيارة "كل هذا سينتهي. سنجتاز هـذه الأيـام رغـم قسـوتها، وسيكتشف الذين أرادوا أن يسيئوا إلينـا أنهـم أسـاءوا إلى أنفسـهم. مـا رأيك في أن نهرب من هذا الجو الملوث لنقضي بعض الأيام على شـاطيء البحر،" فنظرت إليَّ بضيق وقالت:

"يا عزت، أرجوك ليس هذا وقت مثل هذه المشـاريع الخياليـة. أصـبحنا قرب آخر الشهر، والمبلغ الذي يُوجد لدينا أوشك على النفاذ، ثم من أين سنأتي بأجر المحامي؟"

قلت:

"سأتصرف. سأبيع فدانا من الأرض احتفظت به عنـدما أصرت شـقيقاتي على البيع منذ سـنوات. ثـم هنـاك الـدار في كفـر الحـداد مازالـت عـلى

المشاع حتى الآن. عدلت زينة عن بيعها حفاظاً على تراث أبيها العمدة. لا أعرف لماذا أصبحت شديدة التمسك بمكانة الأسرة فى البلدة."

قالت:

"أين يمكن أن نذهب؟"

قلت:

"لي صديق طبيب يملك شقة في قرية صغيرة على الساحل الشمالي ليست بعيدة عن سيدي عبد الرحمن. لم نصل إلى موسم الصيف بعد، فلن يطلب مني أجراً عالياً للبقاء فيها مدة أسبوع أو عشرة أيام. هل ذهبت إلى الساحل؟"

"أبداً، ثم أنا لا أجيد السباحة، بل أخشى من النزول في البحر."

قلت

"في هذا الوقت من السنة البحر هادىء، وسأدربك على السباحة. مسألة سهلة."

"سنتفق عندما نصل إلى البيت. أنا لا أستطيع أن أفكر وأنا متعبة. قاربنا على الوصول."

هبطت من الميكروباص، ثم مدت يدها وأمسكت بذراعى. وضعت قدمي على السلم وهبطت بعدها. سألتني ونحن نسير:

"نبضك منتظم؟"

تحسست الشريانين الصاعدين إلى رأسى و قلت:

"نعم منتظم."

الفصل الخامس والعشرون

زوجـة الـحـلاق

جلسنا على جانبي المنضدة. كان ظهرها من الرخام الأسود، تتناثر فيه شظايا وردية، وبيضاء اللون وضعنا عليه طبقاً كبيراً من الصيني فيه شرائح طماطم، وخيار، وفلفل رومي، وأطباقاً آخرى صغيرة، مجوفة تحتوي على زيتون كلاماتا من سيناء، وجبن أبيض أحضرته أمنية من مصنع الألبان الذي يمتلكه خالها. وسط أطباق الطعام انتصب برطمان من الزعتر الفلسطيني، وعند الطرف استقر سبت من الخوص الملون فيه خبز خاص رفيع معجون باللبن وقليل من السمن صنعته لي زوجة عزب في آخر زيارة للبلدة. في منتصف المنضدة رقدت طاسة فيها بسطرمة مقلية بالبيض. البسطرمة أبتاعها من الحاج عيسوي صاحب محل البقالة الموجود على ناصية الشارع في الدقي أشرب معه أحياناً قهوة الصباح فيحكي لي عن أيام زمان عندما كانت البقالة بقالة. أمنية تقول إن البسطرمة من عنده تفوق كل ما أبتاعه من غيره، وتُوكل إليَّ عملية قليها مع البيض لأنها حسب قولها لا تُجيد إنضاجه مثلي، ولا الحفاظ على عيون البيض سليمة لتُطل علينا من الطاسة.

أما أنا فبسبب الكوليسترول والملح الموجودين فيه محروم من أكل ما أقوم بإعداده ماعدا قطعة صغيرة تُقدمها إليَّ ممسكة بها بين أصابعها الطويلة.

تأملت الطاسة الموضوعة أمامي راضياً عما صنعته يداي. أتتبع أمنية وهى تتناول قطعة من البسطرمة، ثم الثانية، وتمضغ على مهلها، وقد لمعت عيناها. عندما تنتهي تستخرج من السبت قطعة طرية من الخبز وتمسح بها في الطاسة. أسعد بصنع أشياء من أجلها، بمشاهدتها وهى تأكل كأنها طفلة أرعاها. أسألها: "هل أعجبتك؟" فترد: "لذيذة جداً. أنت تجيد صناعة البيض بالسطرمة،" فأعتدل في جلستي شاعراً بأنني أنجزت ما لا يستطيع غيري إنجازه. منذ أن عرفتها أصبحت أعيش الأشياء البسيطة في الحياة. قبل ذلك كنت إلى حد كبير منهمكا فى السعي المستمرمن أجل الإنجاز. حياتى كانت فيها تلك الجدية التي تفتقد القدرة على الهزل، على الاستمتاع بأشياء يمكن أعتبارها تافهة، على إطلاق العنان للحواس، لتتغذى أفواهها الجائعة، جدية تستبعد الهبوط من على عرش المباديء، والضحك الطفولي على التصرفات التي أقوم بإتيانها.

درت بعيني حول الغرفة، حول جدرانها البيضاء، وأثاثها الفيروزي، لونه مثل لون البحر الذي يهمس في أذني، تأملت الخزائن، والمقاعد، والمطبخ المفتوح أُشاهد فيه أمنية وهى تطهي طعامنا، فأستنشق رائحته قبل أن تضعه على المنضدة. والشرفة الواسعة التي أجلس فيها في الصباح لأطل على الحدائق المحيطة بالبيوت، وعلى مساحات بلا نهاية، بلا حواجز توقف الرؤية، وسرحان العقل. استمعت إلى هديل اليمامة تُحدثني بلغة جديدة على عن أشياء لم أفكر فيها.

قصت لي أمنية شعري وأنا جالس أمام البحر تضرب أمواجه في الصخر، وترتد لتعود في هجومها من جديد كأنها غاضبة منه. أستسلم ليديها، للمسة أصابعها، لصوت المقص وهو يقص، أحس بالحب في الطريقة

التي تميل بها عليّ، في الحرص الذي تُبديه عندما يقترب مني المقص، بالسعادة التي أطلت من عينيها عندما نظرت في المرآة، وقلت: "قصة جميلة جداً. شكراً. شكلي تحسن كثيراً بعد القص."

تذكرت وهى تقص شعري فيلما شاهدته منذ سنين كان اسمه زوجة الحلاق يحكي قصة شابة جميلة التحقت بالعمل في محل كوافير كان يملكه رجل تجاوز سن الكهولة. توثقت العلاقة بينهما وتحولت إلى علاقة حب، لكن في أعماقها كانت الشابة تبحث عن حياة آخرى، ربما لم تُدرك ما هى بالضبط. تبحث عن شيء كان يُطل من عينيها في نظرة غامضة سريعة لا تُفصح عن مكنونها. في إحدى الليالي بعد ساعات العمل بقيا سوياً في المحل، واستغرقا في احتساء كئوسٍ متتالية من الخمر. تركا العنان لنفسيهما في الرقص، والعشق المجنون حتى ساعة متأخرة من الليل، وكأن في أعماقهما هناك شيئًا، عذاب ما يسعيان للتخلص منه. قرب الفجر غلب عليهما التعب، فسقطا في النوم راقدين على الأرض، وقد تبعثرت من حولهما أدوات الحلاقة، وأنابيب دهان الشعر، والقناني الفارغة شربا ما فيها من الكحول.

عندما صعدت الشمس خرجت المرأة الشابة من المحل، واتجهت إلى شارع يتفدق إلى جواره نهر. ألقت بنفسها في مياهه المضطربة المندفعة أمامها، وانتهى الفيلم بالرجل الحلاق واقفاً وحده في المحل، ومن حوله الفرش، والمقصات، والأدوات المبعثرة على الأرض، والمرايا تعكس الخراب المحيط به، تعكس وجوده وحيداً في عالمه.

كنا نقضي الساعات جالسين على الرمل، والبحر أمامنا. كانت أشعات الشمس تخترق جفوننا المغلقة فتُصبح غطاءً برتقالي اللون يسري إلينا من خلالها الدفء، تُوقظ الرغبات الراقدة في أعماق الجسم. أفكر في تقبيلها. أتخيل ثديها الأبيض يختفي تحت لباس البحر ابتاعته قبل أن

نسافر ووضعته في الحقيبة على سطح الملابس التي حملتها معها. أفكر في اليوم الذي سأتركها فيه لتُكمل مشوارها. أطرد الفكرة وأستسلم للشمس، أو أتأمل البحر، أو أقول لنفسي عندما نعود إلى البيت سنمارس الحب، ثم يخطر في بالي أن أجمل حب هو ما كان يُمكن أن نمارسه تحت الشمس.

جالس على الشاطيء أتأمل البحر. جئت إليه مرات ومرات من قبل. جئت إليه مع نوران. كنا نبقى لبعض الوقت، لكن سرعان ما تقول أريد أن أعود إلى مصر. هناك أعمال تنتظرني. أما أنا فكنت أريد أن أبقى حتى أسبح في مياهه، حتى أجازف وأدخل في العمق. كنت أريد أن أتوغل في الكون، في السماء فوق رأسي، فى الخطر يُغازلني. عندما ذهبت مع أمنية كنت قد كبرت ولم أعد أخاطر كما كنت أفعل من قبل. كنت أمشي على الرمال ساعة الفجر فأحسست أن ساقي أصبحت أقوى عنها من قبل. تغلبت على الخوف، ودخلت في العمق، نظرت إلى الأفق، ناحية إيطاليا ذهبت إليها وأنا طفل. سبحت في اتجاهها ثم قلت لنفسي كفى وعدت لأجلس على الرمل.

في الصباح ذهبنا إلى السوق لنبتاع ما نحتاج إليه. تصادقنا مع صاحب محل الخضروات، رجل صعيدي من قنا ترك قريته وجاء إلى سيدي عبد الرحمن وهو لا يملك شيئاً. وجدنا عنده مشمشاً حموياً، وبرقوقاً سانتا روزا له طعم وعطر خاص، وطماطم سكرية صغيرة الحجم. وجدنا عنده فجل، فأحسست بالفرح كأن شيئاً من الماضي الحميم عاد إليّ. قلت له:

"لم أتذوق الفجل منذ سنوات. هل تزرعونه هنا في الرمل؟"

قال:

"لا، جئت به من جنا، البلد اللي أنا منها."

قلت له:

"سأتناوله مع الجبن الأبيض، وخبزٍ ساخن من الفرن. صاحبه صديقي منذ عشر سنوات. ابنه اسمه نبيل يدعونه بلبل. تخرج من جامعة الإسكندرية، لكنه يعمل في الفرن. أعطيته إحدى رواياتي. هل لديك ابن؟"

قال:

"عندي ثلاثة، واحد منهم في المحل، لكنه لا يقرأ ولا يكتب. هتجعدوا هنا لحد الصيف؟"

قلت:

"لا.. أنا أحضر في الربيع، وفي الخريف قبل أن يبدأ الزحام."

قال:

"آني كمان ما احبش الزحمة، لكن الزحمة أكل عيش. زرني يوم الجمعة نشرب كرسي معسل واحنا جاعدين على البحر."

عدنا إلى البيت. جلست على المنضدة لأقرأ ما كتبته. قالت:

"أنا جعت. هل تقتسم معي موزة إلى أن أُعد الغداء؟"

قلت:

"نعم، وأخذت منها نصف الموزة."

فتحت الكمبيوتر، وبعد أن مر بعض الوقت قالت:

"في أحد الوقفات الاحتجاجية هتفوا بسقوط مبارك. هل تعتقد أنه يمكن أن يحدث شيء؟"

قلت:

"لا أعرف. لكن عندي لك سؤال مهم."

قالت:

"سؤال مهم؟"

قلت:

"نعم، سؤال خطر في بالي وأنت تسبحين في البحر. ما رأيك في أن نتـزوج عندما نعود إلى مصر؟"

الفصل السادس والعشرون

الغضب إلى أين؟

الشارع الذي أسير فيه خالٍ من المارة، خال من السيارات، كأن سكان المدينة هاجروا إلى مكان آخر. أمشي على ساقين أضعفهما الزمن. أجتاز المسافة إلى المكان الذي أقصده كيلو متر بعد كيلو متر، بخطوات بطيئة متعثرة، لكني أسير. لا أريد أن أكون متفرجاً، أن أجلس أمام الشاشة لأشاهد الجموع الهادرة، ولأتابع القتل بالرصاص الحي، أو بالغازات الخانقة، أو بقطع من الرخام المدببة أعدتها أياد لا نعرف أصحابها. لا أريد أن أشاهد الأجسام تنزف دماءها وأنا جالس في مقعدي، متدثراً بالصوف من البرد القارس لشهر يناير.

شاركت من قبل في مظاهرات، لكن في سني هذا زاد الخوف مما قد يُصيبني. أخشى من ضربة عصا، من حجرة، أو قطعة رخام، أو سلاح يُقال عنه أبيض، من شريان للقلب تخثر فوُضعت فيه دعامة لتوسيعه، من سيولة الدم صنعته الأدوية، من كسر في عظام لم تعد لينة. لكني أشعر بالخجل من هذا الخوف الذي أصابني عند نهاية العمر.

واصلت السير. قلت لنفسي خطوة بعد خطوة حتى أصل. مرت ساعتان، واقتربت من الميدان، صعدت السلم عند كوبري ٦ أكتوبر، واتجهت ناحيته. رأيت النيران ترتفع في السماء، والدخان يُحلق حولها. قرب حاجز الكوبري رأيت جمعاً من عشرات الناس يُطلون من أعلى على ساحة عبد المنعم رياض، وعلى المقر الرئيسي للحزب الوطني الديموقراطي كان يحترق. حول المتحف المصري دبابات، وجنود حلوا محل قوات الشرطة والأمن أمرتهم قوى رقدت في الكواليس بالانسحاب حتى تعم الفوضى في أنحاء البلاد. تركتها للمجرمين، وعملاء النظام، لفرق البلطجية التى تأتمر بأوامرهم.

على سطح المتحف لمحت رجالاً يتحركون. اقتربت من الحاجز فأفسح لي شاب مكاناً إلى جواره. كان يرتدي ملابس قديمة لا تقي من البرد، وكان يرتعش. قال لي بنبرة فيها أسى: "لماذا هذا التخريب؟ لماذا الحرائق؟ الشعب أولى بهذه المباني، الشعب يبحث عن مكان يرقد فيه تحت سقف." على الناحية الآخرى مني كانت تقف امرأة ترتدي معطفاً أنيقاً، وتضع على وجهها زينة كاملة. قالت إن البوليس فتح السجون، وأخرج منها المجرمين، إن المسئولين يُريدون تخويف الناس من حركة الشباب.

سألت الشاب إن كان هناك سبيل للوصول إلى ميدان التحرير، فقال إن الطريق إليه مسدودة، فعُدت أدراجي على الكوبري. هبطت على السلم إلى حي الجزيرة، ثم سرت إلى جوار النيل حتى المجلس الأعلى للثقافة، وواصلت إلى كوبري قصر النيل. هناك وجدت صفوفاً من السيارات تركها أصحابها ليسيروا على أقدامهم حتى الميدان. عند نهايته وجدت عدداً من الدبابات، والجنود، وأسلاكاً شائكة وقف أمامها طابور طويل من الناس أغلبهم من الشباب. كانوا ينتظرون دورهم

للـدخول مـن فتحـة في الأسـلاك إلى الميـدان وقـف أمامهـا صـفان مـن الشباب متشـابكي الأيـدي ليحرسـوا المـداخل. كـان عـدد مـنهم، شـباب وشابات، يتولون تفتيش المنتظـرين، وفحـص بطاقـاتهم قبـل أن يفتحـوا لهم الطريق ليدخلوا الميدان. لمحني أحدهم، فأمسـك بيـدي، وأدخلنـي من الفتحة دون تفتيش، راجياً الناس أن يفسحوا لي الطريق.

بعد ذلك أصبح كل شيء سهلاً، باعثاً على الطمأنينة. التعامل من قِبل الجميع هادئ ومهـذب، لا صراخ، ولا ألفـاظ مسيئة، ولا دفـع بالأيـدي والكيعان رغم الزحام الشديد. قُوبلـت بجـو مـن الترحيـب، بابتسـامات فيها ود. كان الناس يتنازلون عن مكانهم في الطوابير حتى لا أتعطل عن السير في الاتجاه الذي أريده، يقولون لي هذا الطريـق سـالك، أو يمـدون لي أيديهم حتى أقفز فوق حاجز أو جدار منخفض، أو أهبط مـن أعـلى جزء مرتفع في الميدان. يقودون خطواتي حتى أتفادى حفرة، أو كتلة من الحجر. توقف أمامي شاب طويل القامة، أنفه بارز. تأملني للحظـة، ثـم لف ذراعيه من حولي، وقبلني على جـانبي الوجـه، وهـو يقـول: "شـكراً لانضمامك إلينا." رجل آخر ربت عـلى ظهـرى وابتسـم إليَّ، وثالـث كـان يرفع طفلة على كتفيه قدم لي حبةً من التمر. أب قـال لابنتـه الصـغيرة: "سلمي على جدو"، فهزت إليَّ يـدها وضـحكت. شـعرت بـنفسي محاطـاً بجو من الترحيب كأنني صنعت شيئاً من أجلهـم، كـأن وجـودي يُضـفي على حركتهم مصداقية يبحثون عنها.

كانت الهتافات تتردد منظمة، قوية: "الشعب يريد إسقاط النظـام." "إرحـل إرحـل يـا مبـارك." امشي امشي مـش هـنمشي." في كـل مكـان اللافتـات والأعـلام، وحركـات الـرقص، ودبيـب الأقـدام، والطبـول تـدق الإيقاع. مهرجان من التمرد، من الأغاني الثورية، والأشعار، من الشعارات التي تقول: الوحدة، إيد واحدة، الجـيش والشـعب، المسـلم والمسـيحي.

كأن الشعب في هذه اللحظات أدرك منبع القوة، وأسرار الإبداع، أن الوحدة تُطلق إمكانياته، وتنظم تياراته، لتسير في ذات الإتجاه، إن التعبير عن الغضب يُطلق قدرات الخلق. استوحى حضارته ليُصارع القهر.

توالت الأيام، ونحن نهبط أنا وأمنية إلى الميدان. نبقى ساعات، ثم نستريح في شقة صديق. أغذي نفسي بالحديث، بالتأمل، بمشاهدة ما فعله الناس، ثم أركن إلى الراحة مع الأصدقاء لأشرب معهم أقداحاً من الشاي، أو آكل ساندوتش، أو أضحك وأحتفل مع شباب لم أتعرف إليهم من قبل، ثم أخطف ساعات من النوم و أنا نائم على الأرض.

في يوم ١١ فبراير أسقط الشعب حكم الطاغية، في الميدان مهرجان من الفرحة تفجر في الأصوات، في الأغاني، في الرقص، في المشاعر، في الأعلام، أمواج وأمواج من البشر يحتفلون وأنا أسير معهم لكن في داخلي كان يدور السؤال: إلى أين هذا الغضب؟ إلى أين؟

الفصل السابع والعشرون

العُــرس

عدنا إلى البيت. في صندوق البريد وجدت مظروفاً أصـفر اللـون، مستطيلا رُسمت عليه زهرة عباد الشمس. عندما فتحته وجـدت داخلـه بطاقة من مروة حفيدة أختي زينة، ومن خطيبها مصطفى. كانت دعوة لحضور حفل زفافهما فقررت أن أستجيب لها، أن أحاول إعـادة علاقتـي بزينة بعد الجفوة التـي أصـابتها. اقترحـت عـلى أمنيـة أن تـحضر معـي الحفل. لم تكن متحمسة عندما طرحت الفكرة عليها. قالت:

"هل نسيت ما قالته أختك زينة عني وعنك؟"

قلت:

"لم أنس، لكن رأيي أن نحضر الحفل. لابد أنها شاركت في تحديد أسماء المدعوين. لم يحدث في يوم ما أن أخفينا أنـا وأنـت علاقتنـا عـن النـاس، حتى قبل الزواج، والآن نحن زوجين. لن أذهب إلا معك، وسأقول هـذا لزينة، وإن لم يعجبها فلتشرب من البحر."

اتصلت بزينة على رقم التليفون الأرضي أخذته من عزب كان، يحتفظ به من باب الاحتياط لأي أمر يستدعي اتصاله بها. ردت هي عليَّ. أحسست بنبرة من الدهشة في صوتها عندما قلت لها أنا عزت يا زينة لكنها عبرت عن سرورها لأنني بادرت بالتحدث إليها، وسألتني إن كانت الدعوة على حفل الزفاف قد وصلت إليَّ. أكدت لها وصولها، وأضفت أننى لا أستطيع الحضور إلا وأمنية معي، فأجابت وفي صوتها رنين لم أعهده:

"طبعاً هذه مسألة مفروغ منها، وأنا آسفة إن كانت دعوتها قد فاتت علينا. سنصحح هذا الخطأ، وسأطلب من مروة ومصطفى إرسال دعوة إليها فورا." سألتها:

"إن أرادت أمنية أن تلتقط بعض الصور فهل سيكون لديكم مانع في ذلك؟"

قالت:

"مانع؟ بالعكس، على شرط أن تُعطينا بعضاً من هذه الصور، فأنا واثقة أنها ستكون أفضل من أية صور سيلتقطها المصور الذي اتفقنا معه."

قرب الساعة التاسعة مساءً في الليلة المحددة لحفل العُرس هبطنا على سلالم الباخرة الفرعونية. كانت مزدحمة بالمدعوين، فتقدمنا بين الموائد إلى أن اهتدينا إلى مائدة كانت تُطل على النيل، لم يكن يجلس إليها سوى اثنان، شاب وفتاة. بعد أن استأذنا منهما في الجلوس معهما ودار بيننا حديث، اتضح منه أنهما من الزقازيق. الشاب طبيب، والفتاة شقيقته في السنة النهائية لكلية الأسنان. قالا إنهما يُعانيان فيها من العزلة، إنها مدينة قبيحة، يتدهور فيها كل شيء، مزدحمة بمئات الآلاف من الفقراء شبه المعدمين، وبآلاف السيارات الفاخرة التي تجوب شوارعها القذرة المهملة طوال النهار، وأثناء جزء كبير من الليل. أضاف الشاب أنه كان يريد أن

يلتحق بكلية الهندسة، لكن أباه، الغائب في السعودية أصر على التحاقه بكلية الطب، قائلاً أن هذا سيفتح له الباب لينضم إليه هناك، ويعمل في مستشفى فيها إمكانات كبيرة. أما الفتاة فقالت إنها كانت ترغب في دخول كلية الطب البيطري لأنها تستريح للتعامل مع الحيوانات أكثر من التعامل مع البشر، لكن أباها كان يرى أن ابنته لا يُمكن أن تتجول وسط الفلاحين، وأن تتنقل بين الزرائب والغيطان.

أثناء الحديث الدائر ترددت في أذني أصوات موسيقى، ودقات طبول جاءت من مقدمة الباخرة فقلت لأمنية:

"أنا أُريد أن أبحث عن أختي زينة. لم أرها ولم أتحدث معها حتى الآن. ربما تستطيعين التجول لالتقاط بعض الصور. أعتقد أن العروسين، وأهلهما موجودون قرب مقدمة الباخرة، ويُمكنك أن تجدينى هناك"، ثم قمت وأخذت أدور باحثاً عن زينة. بعد قليل لمحت امرأة كانت تقف مع بعض المدعوين، بدا لي أنها أختي زينة لكنها لم تكن مرتدية حجابا. ترددت في الإقدام عليها خشية ألا تكون هى، فاقتربت منها ببطء. شعرها كان مقصوصاً، وثوبها من الدانتيلا الأسود يكشف عن ذراعيها وكتفيها. عندما أصبحت على خطوات قليلة منها لمحتني، فاستأذنت من ضيوفها، واتجهت إليَّ. حملقت في وجهي لحظة، ثم مدت إليَّ ذراعيها واحتضنتني بحرارة. أحسست بالارتباك.أعطيتها قبلة خاطفة على خدها، ووقفت صامتاً باحثاً عما يمكن أن أقوله. خطر في بالي أن أسألها عن زوجها، فلم أصادف وجوده في العُرس. قالت وعلى وجهها ابتسامة: "ألم تسمع؟ زوجي توفى في السنة الماضية." قالتها وهى تمط في الكلمات كأنها تتذوقها بلسانها، ثم تأبطت ذراعي وسألتني: "أما زلت تُجيد الرقص؟" ودون أن تنتظر ردي قادتني إلى مقدمة الباخرة حيث كانت فرقة الموسيقى تعزف للراقصين والراقصات صاروا يتمايلون ويقفزون للأنغام الصاخبة السريعة.

رقصتُ مع زينة. رقصت مع العروسة مروة كانت تلمع عيناها في وجه دافئ كالفخار المحروق في الشمس. رقصت مع نساء، وفتيات لم يسبق لى أن تعرفت عليهن. رقصت كما لم أرقص في أيام الشباب كأن جسمي أفلت مني، ولم يعد يقيده شيء. ضاع الإحساس بأنه هرم، وأرهقه الزمن، بأن قلبي لن يحتمل الجهد. راحت أثقال ظلت تُكبلني. تبخرت كل الأحاسيس ما عدا الإحساس بنشوة الحركة الحرة، بالموسيقى تُحركني، بوجوه الشباب التفوا من حولى، وأخذوا يُصفقون على وقع الطبول، وينظرون إليَّ وعلى وجوههم إشراق الفرحة. نسيت الحقن، والأدوية، ونصائح الطبيب، والدعامة المعدنية المرشوقة فى جسمى. نسيت كل شيء ما عدا السعادة البدائية التي استولت عليَّ، ما عدا الإحساس بوجود أمنية تنتظرني لكى أذهب إليها.

لمحتها تُطل رافعة الكاميرا فوق رءوس الراقصين لتُسلطها علىَّ، فرقصت من أجلها، من أجلها وحدها، ثم تركت حلبة الرقص وذهبت إليها. هبطت من أعلى المقعد الذي كانت تقف عليه. أمسكت بذراعي وقادتني إلى المائدة لم يعد يوجد عليها أحد، وجلسنا. تأملت النيل، والزوارق وأضواءها الملونة تتمايل على سطحه الغامض. تأملت أمنية جالسة مثل زهرة اللوتس الصاعدة من بركة طينية، ثم درت بعيني على جموع الناس الجالسين في الصالة، ينظرون هنا وهناك ليعرفوا من جاء، ومن غاب عن الحفل. رأيت الحجاب يلف حول الرأس ليُخفي فتنة الشعر. رأيت الثدي يُطل من فتحة الثوب الهش. رأيت الذكورة تجلس صامتة، واضعة يديها في جيوبها، لتضارب بالدولار، والدينار في بورصة الزواج أو الجنس. رأيت الفُحش الذي يطل من العيون، ويختبيء في أثواب الشرع، فعدت بنظراتى أبحث عنها.

رفعت حزام الكاميرا على كتفها النحيل، ونظرت إليَّ، فقمت. عبرنا الصالة. وصعدنا السلم. اخترقنا صفوف الحراس، والسائقين، ورجال

الشرطة، والمخبرين المتجمعين عند الباب. سرنا وسط نصبات الشاي، وعربات حمص الشام، والسوداني، واللب، وزحام الناس هبطوا من بيوتهم ليتنزهوا على شاطيء النيل، وفي أعماقي همس الصوت: "اسم الرواية رقصة أخيرة قبل الموت."



مؤلفات شريف حتاتة

روايات:

١- العين ذات الجفن المعدنى   دار الطليعة   ١٩٧٣
دار الثقافة   ١٩٨٣

٢- الهزيمة   دار الطليعة   ١٩٧٨

٣- الشبكة   المؤسسة العربية   ١٩٨١
للدراسات والنشر   ١٩٩٠
دار الثقافة

٤- قصة حب عصرية   دار الآداب   ١٩٨٤

٥- نبض الأشياء الضائعة   دار الآداب   ٢٠٠١
دار المحروسة   ٢٠٠٨

٦- عمق البحر   دار ميريت   ٢٠٠٢

٧- عطر البرتقال الأخضر   دار الهلال   ٢٠٠٦

٨- ابنة القومندان   دار ميريت   ٢٠٠٨

٩- الوباء   دار ميريت   ٢٠١٠

١٠- نور   دار المحروسة   ٢٠١٢

مجموعة قصصية قصيرة:

"حتى يكف القلب عن الدق" تحت الطبع، عن المجلس الأعلى للثقافة، مصر.

سيرة ذاتية:

١- "النوافذ المفتوحة" الجزء الأول	دار نشر مدبولى	١٩٩٣
الجزء الثانى	دار الثقافة	١٩٩٥
الجزء الثالث	دار النهر	١٩٩٨
٢- "النوافذ المفتوحة" طبعة كاملة	دار ميريت	٢٠٠٥

مذكرات:

تجربتى فى الإبداع	دار الثقافة الجديدة	٢٠٠٠
فى الأصل كانت الذاكرة	الأهالى	٢٠٠٢
يوميات روائى رحال	دار المحروسة	٢٠٠٨

رحلات:

١- رحلة إلى آسيا (سلسلة اقرأ)	دار المعارف	١٩٧٤
٢- طريق الملح والحب	دار المستقبل العربى	١٩٨٣

كتب فى السياسة والاجتماع:

١- رحله إلى الجزائر	الدار القومية	١٩٦٤
٢- عندما يتحرك الشعب	الدار القومية	١٩٦٥
٣- الصحة والتنمية	دار المعارف	١٩٦٨
٤- فكر جديد فى اليسار	دار الطليعة	١٩٧٥
٥- العولمه والإسلام السياسى	كتاب الأهالى	١٩٩٩
٦- فكر اليسار وعولمة رأس المال	دار العالم الثالث	٢٠٠٦

خرجت أمنية في الصباح، وتركتني وحدي، فجلست إلى جوار النافذة أُفصص قرون البازلاء. تراكمت الكرات الصغيرة الخضراء في الوعاء الزجاجي، فأحسست بالرضا. خطر في بالي أن الحياة في جوهرها ليست سوى سلسلة من الأفعال البسيطة، نقوم بها لنحافظ عليها، لنؤجل لحظة الموت. ملت على كرات البازلاء الصغيرة وفحصتها جيدا فقدرتي على الإبصار، وكذلك السمع تضعف بالتدريج. أجد صعوبة في التمييز بين حروف الكلمات التي أقرأها في كتاب، أو التى أسمعها وأنا أشاهد فيلماً من الأفلام، أو أتحدث مع الناس. أحتاج إلى ضوء قوي، إلى الإقتراب برأسي حتى أقرأ الكلمات. عندما تُخاطبني أمنية كثيرا ما أطلب منها أن تُكرر الكلام. تُرى إذا ما ظلت تتدهور عندي قدرة الحواس على الإلتقاط هل سأستطيع أن أواصل الكتابة؟ ربما تتحول حياتي إلى القيام بمثل هذه الأعمال التافهة. اختفى الرضا الذي كنت أشعر به وأنا أتأمل التل الأخضر الصغير في الوعاء، فدفعته جانباً. درت بنظراتي حول الغرفة، على المكتبة والكومبيوتر، على صورة لي وأنا صبي صغير أرتدي سترة من القطيفة غامقة، لها ياقة من الدانتيلا بيضاء اللون، على العروسة الجالسة في المقعد الهزاز وعلى وجهها إبتسامة بلهاء.

قمت من جلستي، ورقدت على السرير. مرت ثلاث سنوات وأنا أكتب في هذه الرواية. انتهيت منها عدة مرات، وفي كل مرة عدت إليها ثانية. أجلس على مكتبي وأكتب، وفي الليل أرقد في الفراش وتزدحم أحلامي بالكلمات والصور. فأنا في هذه الرواية كالسائر على رمال متحركة، متردداً، قلقاً في أحيان كثيرة، واثقا فى لحظات قليلة، فما أكتبه ليس له جنس، وليس له اسم. يتأرجح القلم في يدي بين إندفاع الواثق وبطء المتشكك، فما يتولد عن قلمي لقيط لا يخضع للقواعد، لكنه ابني، أو بنتي يُولد قرب نهاية المشوار، وربما لن يُوجد ما بعده. أحيا خريف العمر تحررت فيه من قيود كنت أستشف وجودها على نحو غامض فليقل المشرعون ما يريدون فهوخريف مدهش وشفاف. تُرى هل هو الموت يهمس فى أذنى؟ هل هو الحب؟ أم هو الاثنان معاً؟

الغلاف للفنان / مجاهد العزب

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات